مصطفى كمال أحمد

التحليل السياسي للأدب

دراسة في "المرايا" "لنجيب محفوظ"

مصطفى كمال أحمد

التحليل السياسي للأدب

دراسة في "المرايا" لنجيب محفوظ

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى الأستاذ

إبراهيم الورداني

فارس القصة والفن والصحافة والسياسة

رائد أسلوب عربي مبدع وجديد ..

تحية عرفان من أجيال تدين له بالكثير

فهرس

صفحة

مقدمة

وقف أستاذنا المحاضر فى آخر محاضرة قبل امتحــــان بكالوريوس العلوم السياسية ، وكان حريصا على أن يضفى على محاضراته بعض الطرافة أو الفكاهة مع ما يقدمه لنا من مادة علمية ممتازة .. وبعد التمنّيات العاطفية المعتادة بالمستقبل الموفق السعيــد .. قال (.. كل منكم يستطيع بعد اجتياز هذا الامتحان أن يعلــــق يافطة يكتب عليها اسمه وتحته " خبير فى التحليل السياسى ") .. ضحكنا جميعا لطرفته ولكن الحقيقة أننا درسنا مناهج البحث كما لـم يدرسها أى متخصص آخره وخاصة بالطبع هذا التحليل السياسى الذى جعله أستاذنا موضوعا لتندره ، وننتظر أن نستخدمه فى عملنا المنتظر بالحياة العملية .. وإلاّ فقيم تخصصنا فى هذا الفـرع مـن المعرفة .. " السياسة " .. التى سماها أرسطو سيدة العلـوم .

وخرجنا ــ كما يقولون ــ إلى معترك الحياة ، لنجـــــد أدواتنا المنهجية قد رُكنت وصدئت من عدم الاستخدام .. ولما كنـت أعشق الأدب ــ مثل كثيرين غيرى من خريجى وطلبة الاقتصــــاد والعلوم السياسية ــ وأتابع فيها أتابع أدبنا المعاصر وخاصة قممــه العظيمة مثل نجيب محفوظ فى الرواية .. وجدتنى بعد سنوات قليلة من التخرج أقرأ رواية " المرايا " وكل سطر منها يهيب بى : أيــن أدوات تحليلك السياسى ، فلن تجد موضوعا خصبا يستدعى هــذا اللون من التحليل بقدر ما تجده فى " المرايا " من مادة سياسية ؟!

وفور الانتهاء من قراءتها الأولى عدت إلى البداية لتكون قراءة ثانية متأنّية أحلل ما تقدمه من فكر وواقع سياسى ، وأقدم خريطة متكاملة لما تحويه من عناصر سياسية .

. . . . . .

ولا أدرى لم أحجم الناس عن التحليل السياسى للأدب ولغيره من ألوان الفكر وأنشطة الحياة حتى الآن ، فأصحاب الأقلام لم يتركوا بابا للتحليل إلاّ طرقوه .. فعرفنا : التحليل النفسى ، والتحليل الدينى ، والتحليل الإعلامى ، والتحليل الاجتماعى الاقتصادى ، والتحليل العلمى .. والتاريخى .. الخ وطابور طويل من التحليلات لم تحظ السياسة بشرف المثول فيه وكان الأجدر بها أن تكون على رأسه . على أى حال ، لقد عدت بعد " المرايا " لأعيد قراءة الأعمال الكاملة لنجيب محفوظ وكم كانت متعتى رغم طول الوقت الذى قضيته فى تحليلها السياسى .

إن نجيب محفوظ قمة أدبية شاهقة لا تحتاج لتأكيد عظمتها وخلودها والمكانة الفريدة التى احتلتها فى أدبنا العربى إلى شهادة كبير أو صغير ، وبقدر علو قمم الأدب والفن والفكر بقدر ما يتطلبه إنتاجها من تحليل للمضمون بكافة عناصره ومن مختلف جوانبه . هنا نقتصر على الجانب السياسى ، فنجد أن الأفكار السياسية فى روايات نجيب محفوظ مرت بثلاث مراحل :

(١) فترة التكوين : وتتمثل منذ بدايته وازدهاره الفنى حتى تربعه

على قمة الرواية العربية بثلاثيته الخالدة ٠

(٢) فترة التحولات السياسية السريعة : وعندما نقول سياسية فهى تتضمن كل جوانب التحول اقتصاديا واجتماعيا وفكريا ٠٠ الخ ٠٠ وهذه الفترة يمكن أن نميز فيها ثلاثة مراحل داخلية :

الأولى : مرحلة انقطاع عن الانتاج بعد ثورة ٥٢ للملاحظة والترقب والتقييم ٠

الثانية : مرحلة التحول " الاشتراكى " ، وهى المرحلة الرمزية فى حياته التى اعتبرت فيها رموزه ذات معانى اشتراكية ، وبناء عليه أقام له اليساريون موالد مشهودة احتفالا بكل عمل يحوى حفنة من هذه الرموز وبأعياد ميلاده ، واعتبروه أديب الاشتراكية الأول وأصدروا عنه من هذا المنطلق مؤلفات ضخمة عن أعماله وعن حياته ٠٠ من وجهة نظرهم بالطبع !! ولعلهم الآن يعضون بنان الندم على هذا الاسراف ٠٠

الثالثة : مرحلة النقد " المسموح به " للنظام وقدم فيهما عمليه البارزين " ميرامار " و " وثرثرة فوق النيل " اللذين التقطتهما السينما بسرعة أكثر لاريب مما حولت به رواياته الأخرى الى أفلام ، لاشتياق الفن المصرى الى " الرأى الآخر " بعد طول غياب ٠

(٣) فترة الاستقرار : التى بدأت بثورة التصحيح وتوطدت بنصر اكتوبر وعهد السلام ، وفيها بدأ نجيب محفوظ إلى جانب إبداعه الفنى العظيم يُسفر عن آرائه بشكل مباشر فى مقالات وأحاديث يدلى بها للصحفيين ويعبر عنها بكل الوسائل المتاحة .

.. هنا بُهت اليساريون من موقف وآراء عظيم الرواية العربية الذى كانوا يظنّونه رجلهم ! وأنتجت دهشتهم تصرفات كوميدى فى جريدة الشيوعيين ، فهم محتارون .. مرة يهاجمون المسلسل التليفزيونى " عصر الحب " ، معانيها ومناسبة كتابتها ، .. ومرة يتساءل دكتور من كتّابهم فى يومياته : ماذا جرى لنجيب محفوظ ؟ وأنه لا يصدق ما يصدر عنه من آراء (تصور !! بعد أكثر من عشر سنوات من إعلان نجيب محفوظ عن هذه الآراء ، وتأكيدها طيلة هذه الفترة !)

وعلى أى حال فقد اعتدنا من اليساريين مثل هذا اللغو فى صحيفتهم الطريفة الحافلة بالأكاذيب والبهلوانيات التى يجيدونها ، وربنا عادل وكريم فعندما خصّهم بخفة العقل منحهم معها خفة الدم فيما يعلنونه باستمرار من تخريجات وخزعبلات . وتصرفاتهم وآراؤهم " السياسية " سيرك ممتاز للترفيه والتسرية بالفرجة على غرائب وطرائف من الفهم والسلوك البشرى ، ويشاع أنه من بين أسباب إغلاق ملاهى " كوكى پارك " إعادة إصدار جريدة الشيوعيين بل أجزم

أن أمثالها من أماكن التهريج والتسرية يتأثر بلا ريب يوم ظهـــور هذه الجريدة .

وعندما نعود من هذا المنعطف نتذكر ما استبد بنا من دهشة لسنوات طويلة حيث كان هذا الصنف من البشر بلونهم السياســى يعتبرون نجيب محفوظ فنانهم الأول ، وكان اسمه يتصدر قوائم وطوابير " أعلام " اليسار التى يدأبون على رصّها كل حين من " فنانـــين " و " أدباء " و " مفكرين " . كنت فى هذه السنوات ويشاركنى جميـــع محبّى وقراء نجيب محفوظ مشفقا أن يكون فكره وفنه قد أصابته نســبة تلوّث بهذا اللون من الأيديولوجية . وتمثلت الغرابة هنا أن مـــن وصل إلى هذا المستوى الشاهق من الإبداع حصّنه الله بمناعة طبيعية ضد هذا التشوه الفكرى المقيت ، والأمثلة عديدة من الكتاب الكبـــار للمعسكر الشيوعى نفسه فى روسيا وأوروبا الشرقية . قطعان اليســـار تقرأ لبعضها ويتفرج عليها الناس ، نعترف أن بعضهم كان مأمولا أن يقدم لونا من الإبداع الفنى والفكرى ولكن التشويه العقيدى أجهـض تماما هذا الاحتمال . أما نجيب محفوظ فلا توجد مشابهة أبدا بينــه وبين " فحول " هذه القطعان .. هو فنان ممتاز وصفحة مضيئة مـــن الأدب والثقافــة العربية ، وهو ركن ركين فى قبيلة العمالقة والرواد .

....

.. ومع حبنا وامتناننا الشديد لنجيب محفوظ لما منحه لنا من سعادة فى " الحياة " مع رواياته الحافلة التى قدم فيها شخصيـــات

حارة نابضة نكاد نعرفها أكثر مما نعرف أشخاص واقع اللحم والدم التى تتحرك من حولنا ، يمكن أن نوجّه لأدبه الروائى انتقادين أساسيين :

الأول : مايحويه من رمزية فكر سياسى خلال الستينيات استغله التيار السياسى الغالب فى هذه المرحلة ، ولايزال هذا التيار (يلعب بديله) ويتطلع لاستمرار هذا الاستثمار ، ولكن مواقف وآراء نجيب محفوظ فى عقد السبعينيات عبرت عن فكر نقى وموقف صلب أفحمهم ويكاد يكون حاليا قد قضى على وساوسهم ‥ وهم الآن يصعّدون حملة التطاول على الروائى العظيم منتظرين الفرصة المواتية لانفجار حملة أكبر على من يتصورونه مارقا من صفوفهم ‥ والمنتظر فى مثل هذه الحالات أن تكل القرون الواهنة ولايخدش الجبل !

‥ يكفيهم أن يعود إلى هذه الصفوف أمثال رسام الكاريكاتير المتقلب ذو الاضطرابات النفسية ونوبات الكآبة التى تجتاحه فتذيب شحم جثمانه العجل الغليظ ، والذى هُرع إلى الرفاق ليعالجوه فى كعبته الحمراء ولكن يبدو أنهم أحدثوا خلال علاجهم أكثر من خلل جسيم فى نفسيته وأعصابه !

الثانى : الإغراق فى الجنس فى كثير من مواقف رواياته ، لاشك أنه يقدمه كأستاذ متمكن فى قالب فنى وأدبى ممتاز ولايقصده لذاته لجذب القراء وإمتاعهم مثلما يفعل القصاصون الأقل موهبةً ومكانة .

من حظ نجيب محفوظ أنه لم يُهاجَم أبدا لهذا السبب ، ولم

يتعرض ولا لنسبة بسيطة مما تعرض له إحسان عبدالقدوس — رغم أن الجنس عند إحسان أكثر أناقة فى الشكل والمضمون — ولكن روايات إحسان أثارت الزوابع وتعرض شخصه للأذى بسبب كتاباته الجنسية ، ونجا نجيب محفوظ و(براءة الاطفال فى عينيه) كأنما لايعلم شيئا ولايعنيه أن يتعرض لمثل هذه " الأباحة " ! والحقيقة أن الجنس عند نجيب محفوظ مثل فكره وأسلوبه يغوص إلى الأعماق ، إنه يترك معانيه عارية لايسترها برومانسية السباعى ولا اللمحات الاجتماعية والنفسية التى يضْفيها إحسان ولا الإطار الشامل للأحداث الذى يؤطّره به الوردانى .

هذا هو سمت نجيب محفوظ فى تناول الجنس وكل شيخ له طريقة ، ولكن لنا أن نعترض لأن الأدب صورة للواقع الاجتماعى ووثيقة تاريخية ، ولنذكُر أولئك الإسرائيليين الوافدين بعد اتفاقية السلام يصرّحون بأن دراستهم لمجتمعنا تمت أساسا من خلال أدبنا الروائى . وهكذا يصنعون فى كل الأقسام الأكاديمية للدراسات العربية والإسلامية والشرقية بجامعات العالم . أو دعنا من هذا المثل فى الاستشهاد لأن ما نريد إثباته أبسط من أن نؤكده بالأسانيد والشواهد ، فالرواية الخالدة تنقل عصرها وتقاليده وشخوصه بعد أن ينتهى كل شئ . . إلى قطاعات عريضة من البشر لم تطلع على التاريخ المدون ولم يحدث أى اتصال بموضوع الرواية الحى أو الحقيقى من قريب أو بعيد .

فهل نسعد — ويسعد معنا نجيب محفوظ — عندما تنتقل صورة

نسائنا مثلما صوّرها فى " المرايا " ؟! خاصة أنها لاتمثل الواقـــــع الاجتماعى المصرى العام ولاتمت له بصلة ! من أجل هذا اعترضت ــ مؤمنا بهذا الموقف ــ بحدّة وانفعال شديد عندالحديث عن هـــذا الموضوع . وقدحدث أن اطلع صديق يشاركنى فى عشق أدب نجيـب محفوظ على موضوع الدراسة التى بين يدى القارئ ،وأشار علىّ بحذف صفحات الحديث عن العلاقات الاجتماعية كماظهرت فى " المرايـا " ليس لأنه لايوافق معى عليها ولكن لأن لهجـة الانتقاد قد لاتتناسـب مع مكانة نجيب محفوظ وحبنا لشخصه ولإنتاجه .. ولكننى آثرت أن تبقى هذه الصفحات لثقتى أن كاتبنا العظيم يغفر الانتقاد مهما تكن حدّته مادام صادرا عن مودّة وصدق .

....

ولن تكون دراستنا كاملة إلاّ بتقديم آراء نجيب محفوظ الدائرة فى فلك السياسة والتى نشرتها " آخرساعة " أخيرا فى ثمانية حلقات (من ١٩٨٢/٦/٣٠ الى ١٩٨٢/٨/١٨) ، فبعد عقد زمنى كامل من نشر " المرايا " رأى نجيب محفوظ أنه من المناسب أن يقـــدم آراءه على لسانه مباشرة فى حوار عن ذكرياته فى صفحات قدمها الأستاذ جمال الغيطانى الأديب الروائى والمحرر بأخبار اليوم . دار حديـث نجيب محفوظ عن ذكريات طفولته فى حى الجمالية وبيتهم المطل علـى ميدان بيت القاضى وعن والدته ووالده ، ثم حديث عن الأدب والفن نالت فيه الثلاثية نصيب الأسد بالطبع . ويعنينا هنا الآراء السياسية فهى رغم كثرة ماكُتب عن نجيب محفوظ وما نُشر من أحاديثه تنشـر لأول

مرة بهذا القدر من التكامل والصراحة ـ إذا تغاضينا عن نشرهـــا بإحدى المجلات الثقافية العربية ، وبعض الصفحات المتناثرة فـى مجلات ثقافية أخرى ـ فنشرها بمجلة كبرى فى عاصمة الثقافة العربية هو الوصول الحقيقى لها لأعرض قاعدة من المثقفين والقراء . وأوثر هنا أن أترك الصلة مباشرة بين نجيب محفوظ والقارئ دون وساطة مـنى بالتقديم والربط والتعليق ، فقط قمت بترتيب الأفكار وعنونتهـــا تيسيرا لاستيعابها .

.. يقول نجيب محفوظ :

* السياسة : دخلت السياسة حياتى منذ الطفولة ، عندما كنت أرى المظاهرات فى ميدان بيت القاضى . فى المنزل كـــان الوالد والوالدة متعاطفين مع الوفد ، وإذا ذُكر اسم سعـــد زغلول فانه يُذكر باحترام وتقديس .
فى جميع ما أكتب ستجد السياسة ، من الممكن أن تجد قصـــة خالية من الحب أو أى شئ إلاّ السياسة لأنها محور تفكيرنـا كله . الصراع السياسى موجود حتى فى " أولاد حارتنا " الـتى يمكن أن نصفها بأنها رواية ميتافيزيقيـة .

* التاريخ والمأساة : كنت عازفا عن إقامة أى علاقة مع المسئولين أو السياسيين . السياسى العبقرى هو الذى يفهم الظـروف ، ثم يتخذ القرار المناسب ، إلى أى حد يجب أن يخوض المعارك مع القوى الأجنبية والإنسان لايتذكر التاريخ إلا بعـــد أن

يصبح الأمر مأساة .

* الثورة عند الأديب : تبدأ فى قلبه أولا ، وفى تفاعله مع الناس ثانيا . واذا تجاهلت الدولة صوت الأديب فإن الدولة تكون هى الخاسرة ، لأن صوت الأديب صوت كاشف عن الحقيقة .

* الوطنيـة : المدرسون ، خاصة أولئك المعمّمين من أساتذة اللغة العربية ، زرعوا فى أرواحنا الوطنية وعلمونا أصولها . وقد اشتركت فى جميع المظاهرات التى جرت لأنهم دفعونا الى ذلك .

---

* شلة الحرافيش : كان شعارها الفن والضحك والسياسة .

* السياسة والأدب : جاءت فترة غلبت عليها السياسة ، والسياسيون محرومون من التعبير عن رأيهم السياسى ، فالشىء الذى كان لايقال مباشرة كان يقال عن طريق النقد .

كذلك النقد الفنى صعب ، يحتاج إلى دراسة وذوق وجهد ، ولايقدر عليه أى كاتب ، لكن النقد ذا المضمون السياسى سهل .

---

* توقفت فى حياتى مرتين عن الكتابة :

١) سنة ٥٢ بعد الثلاثيّة رغم وجود موضوعات لاينقصها إلاّ الكتابة . كنت أقول إن الثورة حققت الأهداف وأن المجتمع

لم يعد فيه القضايا التى تستفزنى ، وكان سببا يبعد عنى الشبهات . وهذا التوقف لأربع أو خمس سنوات لا أستطيع تقديم تفسير له وأنا فى راحة ضمير.

٢) سنة ٦٧ بعد النكسة : رغبة وانفعال شديد .. ولاموضوعات! سقطت فى العبث لدقائق بعد هزيمة يونيو ، صحيح أن المقاومة بدأت ، لكن كان الواقع يبدو عبثيا ، فظيعا ..

* حياة مُحبَطة : إننا نعيش حتى الآن إحباطات داخلية مستمرة منذ أن وعينا ، مجرد أن نتنفس نجد من يجثم على أنفاسنا ليكتمها ويفسد حياتنا .

---

* بداية التأليف .. فرعونية : قررت فى البداية أن أكرس حياتى لكتابة تاريخ مصر بشكل روائى . استخرجت حوالى ٤٠ موضوع نشرت منها بالفعل ٣ روايات :

رادوبيس ، عبث الأقدار : أسطورتين

كفاح طيبة : انعكاس لظروف مصر وقتئذ .

.. كان هناك مد فرعونى له مبرراته الموضوعية ، اذ أن العصر الفرعونى هو المرحلة المضيئة الوحيدة فى مواجهة الواقع المرّ الذى كنا نعيشه . وانصرفت عن هذا الاتجاه ، ولا أدرى كيف ألقيت بهذا المجهود الكبير ، ربما لأن التاريخ أصبح عاجزا عن أن يمكننى من قول ما أريده .

* مغزى الثلاثية : فيها تلاقى الشرق بالغرب ، ليس من خلال رحلة مثل الحكيم وحقى والطيب صالح ، ولكنها تمثل الذى وجد الغرب وهو فى الشرق ، جاءت إليه مظاهر الحضارة فكان لابد من شرح هذه التغيرات فى النفس وفى الروح وفى العقل .

* المرايا : بدأتها عدة بدايات ، خطر لى أن أكتب عن الناس الذين مروا بحياتى ولم يلحوا على فنيا .. ثم جاءت فكرة أخرى ، أن أكتب عن الناس الذين عرفتهم بشكل واقعى .. كلا المشروعين لم يتم لأننى اذا التزمت بالحقيقة وجدت أن المحصول محدود جدا . تحولت فى الكتابة الى رواية ، مع أننى بدأتها بنيّة الكتابة عن أشخاص محدودين بشكل واقعى . أحيانا يخيل إليك أنك تعرف كل شىء عن شخص معين ، وإذا قررت الكتابة عنه تجد أنك لاتعرف عنه شيئا ، لكن عندما يتعلق الأمر بالخلق توجد شخصيات مختلفة .. وجديدة !

* رواياتى والواقع : عبرت فى قصصى عن كثير من الخرافات، البعض يستبشع هذا ، لكن ماهو موجود فى الواقع أفظع بكثير . أعتبر رواياتى حشمة بالنسبة للواقع ، أعرف من الواقع الإحصائى حقائق مخيفة .

* تغير آراء النقاد عني :

- بدأت الكتابة سنة ١٩٢٩.
- أول من كتب عني : سيد قطب ، أنور المعداوي سنة ١٩٤٨ ، سنة ١٩٤٩.
- بعدها تعرضت لهجوم منتظم في جريدة الجمهورية ، الحقيقة لا أدري سببه.
- أصبح الأدب البورجوازي بعد ذلك .. أدبا اشتراكيا !
- وبعد رواية " الكرنك " ، أصبح أدبي رجعيا .

* (رأي جمال الغيطاني) أثارت بعض آراء نجيب محفوظ خلال السنوات الاخيرة كثيرا من الجدل ، وأدت الى وضعه في قائمة المقاطعة ، وكان بسبب آرائه ، وبسبب غيرة عدد من الروائيين العرب الذين نصبوا بعض جهدهم في سبيل تحطيم نجيب محفوظ .

.. لكنني أشهد أن آراءه تلك قديمة ، ويرجع بعضها إلى الشهور التالية لهزيمة يونيو .

---

* الوفد : كان الوفد هو حزب الأمة بلا جدال . وكان من يقول إنه ليس وفديا يبدو في نظرنا كأنه كافر. كان الوفد يعبر عن القضية الوطنية والاجتماعية. وجدت أن أنسب شيء هو الجناح اليساري للوفد .

بعد ظهور الثلاثية ، كثير من الوفديين وجدوا فيهما أول كلام جيد عن الوفد ·
مثلا ابراهيم عبدالهادى كان يقرأها ويحض الناس على قراءتها ·
أما محمود غنام فقد قال لى فى ندوة الحكيم أنه فزع على شخصى عندما سمعنى أقول فى التليفزيون أن أحب زعيم الى نفسى هو سعد زغلول ·

* مصر الفتاة : بدأت كنشاط شبابى · وكان زعيمها انتهازيا ، أعلن تأييده لمحمد محمود ·
* الإخوان المسلمون : كرهتهم منذ البداية· لم يكن الوفد فى الانتخابات يرشح أمام مرشحى الإخوان إلا الأقباط ، وكان مرشحو الوفد يكتسحون· (عبدالحميد السحار مال للإخوان وعرض على مقابلة البنّاء ، لكننى لم أكن أطيق هذه السيرة أبدا) ·
* ثورة ٥٢ : أنجزت إنجازات هامة لكن غياب الديمقراطية يهدّد الاصلاحات ·

بخصوص النقد فى رواياتى ·· لاحظ أننا كنت أنقد الواقع نقد المنتمى إليه ·· وأيضا فان إحساسك بالبراءة يمنحك الشجاعة ·
لم ألتق بعبدالناصر فى لقاءات خاصة ، إنما رأيته ثلاث مرات ضمن وفود ·

* البيروقراطية : لم تكن هناك قوانين تحمى الموظف · أول قانون عمله أمين عثمان فى وزارة النحاس سنة ٤٢ · عدا ذلك لم يكن يتقدم فى الحكومة إلاّ أوباشها · كان هناك من يبيعون أعراضهم ،

فالشواذ كانوا منتشرين جدا ، لكن بالنسبة لمسألة الرشاوى كان الحال أفضل من الآن .

---

* الأصالة والتقليد : ازدادت ثورتى على كل ما هو أوروبى أو تقليدى خلال الخمس عشرة سنة الأخيرة ، أصبحت ثقتى فى نفسى أكبره أصبحت أبحث عن النغمة التى أكتب بها من داخل ذاتى أكثر .

لا يجب أن يكون الموضوع فقط محليا ولكن الشكل أيضا ، يوم أن نحقق هذا ، يمكن القول عندئذ أننا قدمنا أدبا عربيا صحيحا إلى العالم . والحقيقة أن الانسان فيه قدر من الأصالة مهما حاول التقليد .

---

* رحلة العمر : مع تقدم العمر وفى هذه الدنيا الغريبة ، يركن الإنسان إلى طفولته .. إلى العمر الآمن الذى انقضى .. يدرك أن منشأه هو المأوى الخاص به .. لأنه عايشه وفهمه ..

أنا فى نهاية مرحلة ، أقول عمره ماهى التجربة الحية المكتملة التى عشتها ؟ ستجد أنها تتمثل فى القديم ليس بمعنى الرجوع إلى قيمه ، أو بمعنى رفض الجديد ، ولكن باعتباره المأوى الخاص بك ، أما الجديد الآتى ، فأنت تتمنى له الخير ولا شيء غير ذلك ، لأنك لن تشارك فيه بنفسك .

مايهمنى الآن يشبه مايهم إنسانا مسافرا إلى الإسكندرية

وصل به القطار إلى محطة سيدى جابر ، فبدأ يتأهب للنزول يحمل حقيبته استعدادا لمحطة الوصول .

.. ولّى زماننا ، وهذا زمان مختلف ، زمان غيرنا .

......

ومع ختام كلام عملاق الرواية العربية – رغم ما أراده من نبرة الختام المتشائمة – أنهى تلك الأفكار التى وددت أن أقدم بها الدراسة الحالية بين يدى القارئ الكريم ، وأؤكد على أملى فى أن تتيح لى ظروف المستقبل تقديم الدراسة الكاملة للتحليل السياسى لروايات نجيب محفوظ ..

حفظ الله لنا نجيب محفوظ ومتّعه بالصحة والعطاء الدائم ..

وجزاء الخير كله لرواياته المبدعة التى تعيش فى وجدان كل مصرى وكل عربى ، تلك الروايات التى أثْرت الثقافة العربية وأمتعت كل مطلع عليها من قراء لغتنا الحبيبة المقدسة .

مصطفى كمال أحمد

ينصرف تعبير " كتابة سياسية " الى كتابات مباشرة في السياسة أي تلك التي تتناول موضوع السلطة وعلاقة الحاكم بالمحكوم والصلات بين مختلف القوى المؤثرة في المجتمع السياسي ، وتأخذ شكل المقال أو البحث عموما أي كتابة قد تتضمن خبرا وقد تتضمن رأيا أو تحديدا لموقف من حدث سياسي سواء ظهرت هذه الكتابة معاصرة للموضوع الذي تتناوله أو بعد مروره بفترة طالت أم قصرت بغرض كشف حقائق جديدة أو تحليل وتقييم ما تم من وقائع ومواقف سياسية وما ظهر فيها من اتجاهات .

هذا النوع من الكتابة السياسية المباشرة هي التي نالت دائما عناية المشاركين والمتابعين لأحداث السياسة وتطوراتها . وهناك نوع أخر من الكتابة السياسية " غير المباشرة " ونعني بها أن تكون المبادئ والقيم والاتجاهات والأحكام السياسية متضمنة في شكل آخر .. علمي أو ديني أو .. أدبي . والشكل الأخير هو أهم الأشكال وأكثرها شيوعا . فالكاتب الذي يفضل ألا يكون طرفا في حلبة الصراع يضمن أفكاره السياسية في رواية أوقصيدة أو أي شكل أدبي ، كما أنه قد يرى أن هذه الطريقة أفضل له لتميزه بأداته الأدبية ومهارته ووجود الجمهور الدائم الذي يتابعه في إنتاجه بهذه الوسيلة أو الشكل الفني .

والكتابات السياسية المباشرة قد تثير كثيرا من الضجيج في الفترة التي تتناولها وتظل موضع اهتمام ومداولة طالما ظل الموقف

الذى تتحدث عنه ساخنا ويتضاعف الدوى اذا وجد صدام مباشر مع السلطة أو وجدت قلاقل واضطرابات عنيفة بين القوى المختلفة فى المجتمع السياسى ، ولكن مهما أحدثت من ضجيج فتأثيرها ينتهى بنهاية الحدث أو الموقف الذى تتحدث عنه ، بعدها قد يندثر هذا الطوفان من الكتابات السياسية الآنيّة مع الاحداث ، أو قد توجد عوامل أخرى تذكّر بها بين آن وآخر فى سجل التاريخ ، كأن يكون موضوع الحدث الذى تدور حوله الكتابات بارزا هاما فى حياة الأمة أو أن تكون بعض هذه الكتابات أحدثت تأثيرات فعلية كبيرة أو تكون ارتبطت بشخصية من أعلام الأمة أو غير ذلك من العوامل .

أما الأفكار السياسية المتضمّنة فى شكل أدبى ، أى (الكتابات السياسية غير المباشرة) فهى أخطر وأعمق تأثيرا فى المدى الطويل لأنها ممتعة حيث أخذت الشكل الأدبى أو الفنى الذى يخاطب الوجدان ، لذا فهى تصل إلى قطاعات عريضة من الناس على اختلاف مواقفهم السياسية ، حيث تشكل ميولهم وأفكارهم فى غفلة من فكرهم " الواعى " ـ ان جاز القول ـ وفى غياب المقاومة التى قد تحدثها " عُقد " الشخصية وتركيباتها فى الظروف العادية . ثم أخيرا نجد هذه الأفكار السياسية التى يحتويها عمل أدبى أو فنى تعيش سنوات طويلة كجزء من ثقافة الأمة وتراثها الفكرى لتؤثر على أجيال متعاقبة وتتناسب مدة حياتها ومدى تأثيرها طرديا مع جودة العمل

ومكانة كاتبه وماحظى به عمله ذاك أو بعض أعماله من تقدير وذيوع بين جمهرة المفكرين وعامة القراء .

ورغم أن الفكر السياسى فى شكل أدبى أو فنى عظيم الخطر فى تأثيره ، شديد الأهمية لانتشاره فلم يحظ فى النقد والتحليل السياسى بمثل هذه الأهمية التى يمثلها . ففى هذا النوع من الانتاج الادبى ذو المضمون السياسى تم تناول الجانب السياسى جزئيا فقط وبشكل هامشى من خلال نقد وتحليل العمل الفكرى الإبداعى من كل جوانبه ويحظى بالسبق والتركيز والإفاضة بالطبع الجانب الأدبى والفنى لأنه جوهر طبيعة العمل الذى استمد منه وزنه وتأثيره وهو الشكل الذى خرج به للقراء .

وعندما قُصِدت الأفكار السياسية فى العمل الأدبى لذاتها وحظيت بالأهمية الأولى وكانت محورا للتحليل ، عرفنا ذلك فى حالتين :

أولاهما : سرية من تلك الحكومات التى تخشى تأثيرا هذه الافكار على العقيدة التى تتبناها وتريد مواجهة ما يعرقل سلطة الحكومة والحكام ويمس هيبتها ، ولا يقوم بهذا العمل إلاّ رجال عملهم ذو طبيعة بوليسية أو رقابية رسمية وهم بداهة ليسوا على مستوى ثقافى رفيع يتيح لهم التقويم النقدى والتحليلى ولكنهم يعتمدون على بعض القوالب ليصنّفوا الكتّاب وأعمالهم فى تبسيط مخلّ يضيع الحقيقة وتصنيفهم غالبا ثنائى : (يمين أو يسار) (مع الحكومة اوضد الحكومة)

٠٠ الخ ٠ وعندما تلجأ السلطة الى أفراد ذوى مستوى فكرى أو أدبى معقول فهم يقومون بهذه المهمة بالذات لمجرد الكسب وليسوا فيها أصحاب عقيدة سياسية يناضلون عنها ولامبدعين فى مجال الفن والأدب تسيل أقلامهم بما يوحى به الإلهام ٠ لذا فعملهم قاصر وشكلى (أداء واجب) ولا يعد تحليلا سياسيا للأدب بمفهوم فكرى معقول ٠ وكل ذلك فضلا عن الأهواء الشخصية مثل إيقاع من يكتب التقرير للسلطة بأعدائه الشخصيين وإن لم يكونوا من أعداء السلطة، أو استغلال كاتب التقرير لمهمته هذه فى السعى لرفع أو خفض أفراد تحت تأثير تجمّعات الشّلل أو تنفيذا لطموحه ومخططاته الشخصية٠

والحالة الثانية التى قُصِد فيها تحليل الفكر السياسى فى الأدب لذاته هى حالة النقد الإيديولوجى ٠ فما من عقيدة سادت فى مجتمع معين إلاّ وكان لها من النشاط والفعالية طاقات حاولت بها أن تُخضِع كافة مظاهر الحياة فى هذا المجتمع لما تنادى به من مبادئ وقيم ، ومن ضمن ما تحاول التأثير فيه وتوجيهه ٠٠ الفن والأدب ٠ حاول هذا التأثير الشامل على مدى التاريخ سواء الديانات السماوية وسواء العقائد الوضعية فى السياسة والاجتماع وغير ذلك ٠ أبرز مثل معاصر هو النقد الماركسى للأدب فأول ما يقصد فى أى عمل ادبى هو أن " يشجب " و" يندّد " بكل القيم والرموز " البورجوازية " ، ثم ينظر بعد ذلك كيف تناول ذلك العمل وضع " البروليتاريا " : هل مجّدها ؟ وكيف سجل " نضالها البطولى " وهل تناول

" الصراع الطبقى " فى خط درامى قوى ؟ وهل أبرز " التناقض " وجسّمه ؟ هنا أيضا نوع آخر من القوالب قد تكون أكثر تركيبا وتعقيدا من السابقة ولكنها تشاركها فى الجمود والتحجر ومحاولة فرض أفكار ومواقف دون حوار ديمقراطى خلاق ، وهذه القوالب التى يصب فيها العقائديون كل كتاباتهم الموسومة باسم الأدب والفن ، جميعها تعبر عن " الالتزام " و" التقدمية " . وماإن يتمكن أولئك الزبانية من أدوات ومسارب الإعلام والثقافة فى مجتمع حتى يدمغون كل مايصدر عنها بلون أحمر ويُصْلون كل من يحاول تخفيفه أو التنصل منه أو تجاهله بسياط من الأرهاب الفكرى تنال من فكره وسخصه وقد تنال أيضا من أمنه وسلامته .

ومثل هذا النوع من النقد الأدبى يتيح لنا أن نلمّ ببعض عجائب وغرائب . كأن تكون هناك شكوى حزبية من عمال مصنع كذا لأنه لم تؤلف عنه قصة أو قصيدة ، وأن ذلك (تقصير) يجب المحاسبة عليه ! أو أن يكون محور معظم الاعمال الأدبية الإشادة ببطولة ذلك العامل الذى يعشق آلته ولايطيق فراقها ليل أو نهار والذى يحقق أضعاف المطلوب منه فى الخطة ، ثم له منفعة أخرى هو أنه " يفضح " عيوب البورجوازيين ويكشف مؤامراتهم الخبيثة ومن أجل كل هذه المزايا والإنجازات نال لقب بطل العمل ووساما .. الخ كل ذلك فى أسلوب تقريرى سخيف ، يفتقد أى مسحة من خيال أو متعة . فطالما وجد إكراه أو قسر اختفى تماما الإبداع فى الفن والأدب فهما

نقيضان أبدا لايجتمعان .

وبعد عرض النموذجين اللذين عرفهما واقع تناول الأفكار السياسية المتضمنة فى شكل أدبى يمكننا أن نحدد بسرعة ملامح فكرتنا عن التحليل السياسى للأدب . هذا النوع من التحليل يتطلب شرطين أساسيين فى وجوده لكى يختلف تماما عن الأمثلة السابقة وهما :

١ـ العلنيـّة : لأن أى كتابة لم تظهر فهى جنين فى عالم الغيب . قد لاتظهر لانها لم تتوفر لها ظروف النشر ، وقد يكون سبب عدم ظهورها أنها تقرير غير علنى يرفع لمن يهمه الأمر ، لذا فصفته كعمل أدبى متداول غير موجودة وتقع عليه من الناحية الكفرية مهما كان مستواه كثير من الشوائب والتحفظات . أن أى كتابات فكرية أو أعمال فنية أو أدبية هى غير موجودة الى أن تعلن بأى وسيلة للنشر والذيوع لكل من يرغب فى الاطلاع عليها . ويلزم مع النشر إتاحة فرصة الحوار لكل الأطراف التى تعبر عن مختلف وجهات النظر . . فى فرص عادلة قدر ما تتيحه الظروف السائدة . إن الحوار المتكافىء فى مناخ صحى وعلى أسس سليمة يثرى الفكر ويحقق مصلحة جميع الأطراف وفى جملتها أى سلطة تريد رصد الاتجاهات الفكرية . فالحوار الديمقراطى هو البوصلة الحسّاسة الدقيقة التى تحدد تيارات الفكر ومجالاته واتجاهاته بصورة صادقة .

٢ ـ العلميـّة : هدف العلم هو كشف حقائق الأمر الواقع وفهم وتفصيل قوانين الحياة حتى يمكن التعامل معها وتحقيق أكبر استفادة ممكنة منها لبنى الانسان . هذه الحقائق والقوانين لايختلف

فيها طرفان او كما قيل قديما (لايتناطح فيها عنزان) لأنه اذا حدث خلاف فالمنهج العلمى هو الحكم ، والنتيجة هى نصر للجميع ٠

والتحليل السياسى هو مجهود علمى وإن لم تتوافر فيه كل خصائص العلم وهو نفس الوضع الموجود فى أعمال واجتهادات العلوم الاجتماعية٠ لازالت الإيديولوجية والأهواء المتغيرة للجماعات والفئات والمصالح الخاصة وعوامل أخرى عديدة تشكل قيودا على مدى علمية المعارف الاجتماعية ويجب أن تستمر المحاولات جادة مثابرة على إكساب هذه المعارف مزيداً من صفات العلم وخصائصه ٠ إن الحياد والموضوعية أمل عزيز للعلم الاجتماعى سيتحقق ـ بإذن الله ـ طال الزمن أم قصر٠ وحينما نبذل محاولات فى التحليل السياسى للأدب يجب أن نخلصه باستمرار عند التقويم الموضوعى من عناصر الذاتية وكل العوامل التى تؤدى إلى خلاف غير قابل للحسم بمنهج علمى سليم ٠

خطوات التحليل السياسى للأدب :

الباحث الذى يقوم بالتحليل السياسى لعمل أدبى يُتم عمله فى خطوتين رئيسيتين :

١ ـ تحديد وتوضيح الأفكار والاتجاهات والوقائع السياسية التى تناولها العمل الأدبى ، وذلك بسردها فى عبارات ماقل ودل ، ومحاولة تقديم خلاصة أو محصلة لهذه العناصر٠

٢ ـ تحليل مختلف العناصر السياسية التى فرزت واستخلصت فى

الخطوة الاولى . هذا التحليل يجيب عن تساؤلات كثيرة لعل أهمها :

هل العناصر السياسية التى تناولها الأديب فى عمله الادبى صادقة ومتفقة مع الواقع ؟ وما هو مدى وضوح التعبير عنها ؟ مدى قوة التعبير عن كل فكرة أو اتجاه سياسى ، ومدى تعاطف الكاتب مع أى منها ؟ الدلالة الواضحة من تاريخ حياته ـ مدى التأثير الفعلى للآراء والأفكار السياسية التى أوردها الكاتب فى عمله الأدبى ، ومدى التفاعل المنتظر او المتوقع لها مع الواقع بما فيه من ظروف حية متحركة او تيارات ساخنة .

هذه هى التساؤلات التى يثيرها هذا المفهوم للوهلة الأولى ، ومع رسوخ مفهوم التحليل السياسى للأدب وتداوله بعديد من المجهودات العلمية وتناول الأقلام للأعمال الادبية لتطبيق منهجه فيها ، ستتطور هذه التساؤلات لتعبر عن عناصر أساسية ثابتة بالإضافة الى الاجتهاد الشخصى والإبداع الفردى للباحث الأديب .

ويبقى علينا إثبات ملاحظتين سيحكمان إلى حد كبير مدى النجاح فى التحليل السياسى للأدب خاصة فى مراحله الأولى :

الأولى : مدى شمول مفهوم السياسة : فالسياسة هى الحياة فى جزئياتها وكلياتها فكل مظاهر الحياة ومعاملاتها لاتخلو من " سُلْطة " ، والحكومة أو الادارة أصبح مفهومها الحديث يحيط بالحياة فى كل مناشطها وفى أدق ما تعنيه .

ومع ذلك يجب أن ينصب معظم التحليل على المفاهيم السياسية المباشرة والعناصر الأساسية للحياة السياسية التي يتفق عليها جمهرة أهل الفكر من كتاب وقراء . ثم الانطلاق الى كل ما يؤثر في السياسة ويتأثر بها ، من مشاكل وقضايا وأحداث . ومدى التناسب أو التناسق بين هذه العناصر سيختلف من عمل أدبي الى اخر.

الثانية : إبداع الكاتب ومستواه الفكري والأدبي ومكانته في الحياة :

هنا شخصية الكاتب الذي يقوم بتحليل سياسي لمادة أدبية هامة جدا لايمكن إغفالها بل يجب أن نضعها في اعتبارنا باستمرار ولا نغفلها لحظة في متابعة تحليله . ولاشك أن اهتمام بعض الكتاب المبدعين بهذه الفكرة سيخدمها ويعطيها دفعات قوية للأمام ويزيدها رسوخا في تراث الأدب والعلم الاجتماعي . مدى شمول فكر الكاتب وانطلاقات خياله الى آفاق أبعد وأكثر تنوعا ، ثم مدى خصوبته الفنية وتقديمه العميق المثير الذي ينشط طاقات الفكر ويحرك تيارات الالهام ، ثم قدْره ومكانته التي تعطي الاعتبار لكلماته وسطوره وتعطيها الوزن والأهمية لدى جمهور عريض يكن له الاحترام والاعتبار الكبير .. كل هذه العناصر التي تحيط بشخصية الكاتب الباحث ستخدم التحليل السياسي للأدب . إن التحليل السياسي للأدب نهْج جديد ومفيد يحدث تفاعلا جديدا في عالم الفكر وتربته الصالحة ومخصّباته هي الديمقراطية وما يتعلق بها من

تدعيم للحريات وسيادة القانون ، ففى هذا المناخ فقط يزدهـــر هذا النّبت ويترعرع ويمد جذوره رسوخا فى الارض ، وتطول ساقــه وتمتد فروعه سامقة إلى عنان السماء . ان نجاح هذا اللون من التحليل فى صورته السليمة سيحمى الحياة الفكرية والأدبية والسياسية من كافــة التيارات الخفية والدوامات التحتيّة غير المنظورة وغير المفهومة وغـــير القابلة للتحديد . قد يمكن للبعض فهم بعضها عندما يلم ببعـــض الدوافع والظروف ولكن لن يمكن ذلك لعامة المهتمين والمشاركين فى الحياة العامة ومختلف مجالات الإنتاج الفكرى الأدبى والسياســى . ان مدى النّقاء والإخلاص الذى يمارس به التحليل السياســـى للأدب سيرشّد النشاط السياسى ويثرى الإبداع الأدبى .

"المرايا" تمهيد وتعريف

" المرايا " رواية فى قالب الذكريات الشخصية التى تعرض عديدا من الشخصيات مرت فى حياة الكاتب، وقد نشرت لأول مرة مسلسلة فى مجلة الاذاعة فى المدة من أول مايو ١٩٧١ الى ١٦ اكتوبر من نفس العام ، وهى بذلك شكل فنى جديد يقدم فيه صورا موجزة متتالية لخمسة وخمسين اسما مرتبة ابجديا ممن عرف من الناس ، منها ١٤ إناث ونفرد لهن جزءا خاصا من حديثنا ، وهو تصرف دفعنا إليه الراوى نفسه حيث جعل ما يجمعهن أصلا هو الأنوثة فهى مناسبة وجودهن فى هذا الكتاب وليس أى صفات أخرى مع استثناء واحدة أو اثنتين أضيفت فيهما ظلال أخرى غير صفات الأنوثة. وبقية الخمسة وخمسين ٤١ ذكرا تقسمهم طريقة معرفته بهم إلى ثلاثة طوائف :

الأولى : شِلّة وجيرة الطفولة ومعارف المدرسة : وهى أكبر مجموعة وفيها ١٩ اسما .

الثانية : معارف الجامعة والعلاقات الثقافية والعامة : وتلى الاولى فى العدد حيث تصل الى ١٤ اسما .

الثالثة : زملاء الوظيفة : وهى أصغر مجموعة حيث لم يتعرض فيها لسوى ٨ أسماء.

وفى كل مجموعة من المجموعات الثلاث السابقة ، يجعل الراوى لها قطبا أو مثلا أعلى يتحدث عنه دائما كلما وردت سيرته فى سياق اى شخصية أخرى بودّ وتعاطف وإعزاز، هذه المكانة احتلها فى

المجموعة الاولى (رضا حمادة) وفى الثانية (ماهر عبد الكريم) وفى الثالثة (عباس فوزى) . واذاما تساءلنا عن المعايير أو الأسباب وراء التأثر الشخصى للراوى بهذه الشخصيات والتى رفعتها الى مرتبتها العالية لوجدناها تمثلت فى سببين : المثالية والثقافة ، فاحدى هاتين الصفتين او كلتيهما عندما وجدت فى أعلى مستوى لها فى شخص معين فى كل مجموعة تجده قد حظى بدوره فى سطور الكاتب بأعلى درجة من وده وتقديره .

وهذا الشكل الفنى الذى اختاره الروائى للمرايا جعلها كمسودّة رواية تسجل لمرحلة حافلة من تاريخنا السياسى ، وكأنما تكاسل مؤلفها عن إعطائها الخط الدرامى الذى يوحد جزئيات أحداثها وأشخاصها أو دفع بها للنشر هكذا كتجربة طريفة او شكل فنى نادر فى الرواية المصرية .

هى ليست رواية بالمعنى المصطلح عليه تتخذ الشكل الذى يعرفه عامة المتأدبين والقراء لها بداية وعقدة ونهاية ، مفهوم الرواية الشائع يعبر عن مجموعة من الوقائع والأفكار منظومة فى نسق واحد ولكن " المرايا " اتخذت شكل مذكرات شخصية ، وتقدّم صورة محددة لمعظم الشخصيات التى قابلها المؤلف فى حياته . المؤلف يذكر أحداثا سياسية ووقائع يعرفها بالتحديد كل من عاصرها ، ثم فى الشخصيات المثالية التى يقدمها معظمها تكاد تعرف من يقصده فى الواقع بالضبط ولكنه يسارع ليخلط بعض النقائض والخيال لكى

لايمسك فى موضع مساءلة كمؤرخ او مسجل بدقة لأحداث أو آراء ..
فهى قبل كل شئ.. مجرد رواية ، ولم يكن ينقصه من أدوات هــذا
النمط الروائى الا أن يصدره بالعبارة التقليدية " شخصيات هذه
الرواية لاتمت الى الواقع بصلة ".

رواية أم مذكرات شخصية : قلت أن العديد من شخصيـــات
"المرايا" يتعرف القارئ دون جهد كبير على من يحكى عنه الـــراوى
من شخصيات حقيقية مستمدة من واقعنا المصرى ، ولاشك أن جيـــل
المؤلف والذى شهد معه عن قرب تفاصيل الأحداث التى تحدث عنها
أولاً قل بالتحديد أن أى واحد من شلة الحى العديدين سيعرف جميع
من تحدث عنهم من مشهورين ومغمورين ، وعموما فنجيب محفـوظ
لم يبذل جهدا كبيرا فى إخفاء ملامحها وغالب الظن أن ذلك لم يرد
أبدا على باله أو يكون مقصدا له . وقد أرفق مع كل شخص مواقفه من
الأحداث الوطنية والسياسية التى مرت بنا وآراءه فيها ، ورغـم أن
الكتاب يسجل لأهم أحداث حياتنا ويضج فى كل سطر منه بنبض الواقع
الحى الذى عاصرناه واحتك اغلبنا بتفاصيله ، فقد شاء المؤلف أن
يخرجه فى قالب الرواية ، فأعطى كل الناس أسماء وهمية ، وخلـــط
الوقائع الشخصية ببعضها ، فلا يستطيع أحد بعدئذ أن يقول هــذه
الشخصية هى فلان بدون لبس أو غموض وليست أحدا غيره .

"المرايا" اذن رواية أخذت روح وشكل المذكرات الشخصية .وقد
حسم المؤلف هذه الحقيقة مرتين : الأولى حينما أخرج كتابه بالفعل
فى شكل رواية وكان قادرا أن يجعله فى شكل المذكرات : بأسمائهـا

الحقيقية وتسلسلها الزمنى ودوره الواضح فى كل حدث أو موقف فيهـا ، والثانية عندما حولتها الإذاعة المصرية إلى مسلسلة ذكـرت فـى تقديمها أنها " مذكرات نجيب محفوظ " ،إنه اعترض على الفـور وأوقفت بناء على رغبته بل وشرع فى مقاضاتها ٠

فالمؤلف هو رب العمل الأدبى أوالفنى وخالقه فله أن يُنفـذ فيه مشيئته ٠ وعلى طول التاريخ الأدبى أُحيطت كتابـة المذكـرات الشخصية أو الذكريات أو كتابة التسجيل والتأريخ وعـرض شخصيـات الواقع التى احتك بها المؤلف بكثير من المحظورات ، خاصـة عندمـا يكون البعد السياسى فيها كبيرا ٠ لقد تهيب البعض فرأى أن تنشـر هذه الاعترافات بعد موته فيخلّص نفسه من مشاكلها ولكى يرضـى سـواء نزعتـه الأدبية وسواء ضميره المنصف الذى يطالبه بذكـر الحقيقـة كاملة ٠ بينما كان لدى البعض الآخر الشجاعة الكافية لينشرهـا فـى حياته ويتحمل رد فعل شخصياتها الحية أو من يهمهم أمرهم اذا كانـوا قد انتقلوا الى عالم الخلود ٠ وقد يأخذ نفس هذا النوع من التصـرف صورة أخرى هى أن يذكر المؤلف الحقائق بالتحديد ويتابع سـرد وتحليل شريط حياته ولكنه يتجنب من المواقف أو الحكم على الشخصيات مايجر الى الخلافات الشنيعة أو يسبب الأضرار الكبيرة ، عندئذ قد يفضل المؤلف تأجيل كل مايحدث الضرر إلى مناسبته أو يتركه كوثائق أو أمانـة عند من يؤتمن ليذكره بعد مغادرة راويه لعالم الفناء ٠٠ أما البعـض الثالث فقد أخرج خبراته واعترافاته وأحداث حياته فى صورة الروايـة ٠٠ والمفروض أن الرواية تأليف وخيال ٠٠ واستعمال أحداث الواقـع فيهـا

هو نوع من التصرف الروائى ٠٠ وهذا التصرف هو الذى فضله المؤلف لنشر بعض الذكريات ٠

وليست الرواية أو القصة عموما وفى أبسط مفاهيمها إلا توليف خبرة الواقع مع انطلاقات الخيال ٠ ولكنا نجد قصصا تتناول حدثا تاريخيا محددا تتابعه وتسجله بالتفصيل والتحديد وتكاد شخصيات الرواية تنطق بالشخصيات الموازية لها فى الواقع ويحضرنى من هذا النموذج من أدبنا المصرى الحديث رواية تمثيلية يسرد فيها مؤلفها بعض ما تناقلته الأخبار من مهازل آخر ملوك مصر فى زواجه الثانى ، ثم الروايات العديدة التى تم فيها تسجيل أحداث الوسط الصحفى المواكبة للتطورات السياسية بعد الثورة ، وغير هذين النموذجين سنجد أمثلة كثيرة من الأدب العالمى والعربى ٠ وهذه القصص بالطبع لاتعتبر سجلا أو وثيقة تاريخية ولا يمكن الرجوع إليها فى التعرف على الشخصيات او الأحداث كمرجع علمى معتمد أو سند وثيق لإثبات فرض أو التدليل على القضايا التاريخية أو لتحليل اتجاهات التاريخ أو كشف حقائقه ، ورغم كل ذلك فهى تترك انطباعات وأفكارا وكثير من التفصيلات الصغيرة التى يتناقلها الناس ٠ دور العالم هو تقديم الحقائق المجردة أما القصّاص أو الروائى فالأساس عنده هو شطحات الخيال وإبداعه هو تقديم الشىء الجديد الغريب الملفت الطريف ٠ هنا تترتب عليه مسئولية أخلاقية هو أنه لايعرف الحقائق كاملة بل هو عاصر بعضها بالسماع أو قد يكون شاهد وشارك فى جزء منها ويستكمل صورة موضوعه مما وصل اليه ٠٠

وهذه المادة يخلطها ويمثلها جيدا مع مخزونه الفني ويُعمل فيه خياله ويقدمه في رواية . ان مادة الروائي مستمدة في نسبة منها زادت أو قلت من دوامة القيل والقال .. وهذه الدوامة غالبا ما تميل الى ارضاء " غرائز" البشر . فالألسنة الحداد تلغ في الأعراض وتنهشها وتميل الى تحويل الشبهة إلى واقع أكيد .. هذا غير المغالاة والمبالغة في بعض صفات الأفراد أو بعض تفاصيل الأحداث .. دعك بعد كل هذا من المزاج النفسي والغرض الشخصي الذي يلون كل شيء في الحياة بصبغة ذاتية .. وقاتل الله الغرض . أريد أن أؤكد أن هناك قيدا اخلاقيا على الروائي عليه أن يرضى به مختارا ، هذا إذا أراد أن ينام هانئا قرير العين مرتاح الضمير . هذا القيد هو أنه عندما يتناول أحداث واقعية وأشخاص معروفة .. ما أن ينطلق القارئ في الصفحة الأولى حتى يقول هذا فلان وهذه فلانة .. ويستمر سرد الروائي في روايته من مبدئها الى منتهاها ليؤكد هذا الزعم .. عندئذ على الروائي أن يتقي الله في بعض محظورات يجب أن يتجنبها كل ذي ضمير إنساني واجتماعي حي ومسئول . عليه الا يزيد اويبالغ في الأخطاء والانحرافات والاتهامات الموجهة لأشخاص روايته المرتبطة بأحداث الواقع وعليه ألا يزيد من شناعتها وبشاعتها ويضيف اليها تهما جديدة من خياله . ثم عليه ألا يحرّف ويلون أحداث التاريخ التي يسجلها فيلويها ويشكلها ليرضي موجة غوغائية سائدة في فترة .. أو يتملق سلطة يرضيها أن يدخل في أوهام الناس ما يرضيها وان كان لغوا بلا أساس من منطق .. وكل هذا بالطبع في الإطار الفني من إبداع

الخيال وانطلاقه الذى يحقق انتعاش العواطف وخصوبة الوجدان وبهجة الحياة . مادام الروائى لم يقتصر على دوره صرفا فيقدم أدبا انسانيا محلقا ينطبق على مطلق الظروف الانسانية وتيارها الجارى وتكون انعكاسا لكل فرد فى مختلف شئونه وحالاته وأطواره . ومادام أدخل فى دوره نسبة من عمل المؤرخ الذى يسجل لفترة محددة بكل عناصرها الواقعية حيث تتصارع وتتناقض وتختلف أهواء مجموعة من البشر فى زمان ومكان وظروف محدودة فيجب أن يتحمل بمروءة وشهامة الفنان الكامل يقظ الضمير راقى الخلق مسئوليته الخلقية والانسانية وهى تعلو ولا يُعلى عليها .

ملامح الراوى

ذكرنا أن " المرايا " رواية وليست مذكرات شخصية أو هكذا رفض مؤلفها أن يعتبرها . لذا تعين علينا أن نحدد الملامح العريضة لشخصية الراوى مستمدة فقط من خلال روايته .

الراوى يحدث عن طفولته فيقول أنه كان يسكن فى ميدان بيت القاضى وأنه كان يهوى لعب كرة القدم وله صور مع فريق مدرسته . سكنه تغير بعد ذلك الى الحى القديم بالعباسية حيث تعرف بجيران الحى الذين صاروا شلة اصدقائه بقية حياته .. أو على الأقل تابع مصاير معظمهم فى الحياة . ومن العلاقات الفارقة فى جبينه ندبة جرح مستديمة من أثر ضربة قبقاب تلقاها خلال خناقة مع ولد فتوة من أترابه

أعضاء الشلة .

خطه الثقافى بدأ بقراءة روايات المنفلوطى وميشيل زيفاكو .
التحق بالجامعة ١٩٣٠ والتحق بخدمة الحكومة فى أواخر ١٩٣٤ وفى
موضع آخر أوائل ٣٥ . صار الراوى معروفا خلال سنوات من تخرجه .
اتجاهه السياسى يحدده فى (الاشتراكية البرلمانية) .

أعمال نجيب محفوظ وتحليلها السياسى

أكثر من روائى معاصر سجل لأحداث المرحلة فى رواياته ،
فتكاد الروايات الأخيرة لكبار روائيينا تدور حول الأحداث الوطنية
والسياسية التى مرت بنا فى السنوات الأخيرة ، ولكن روايات نجيب
محفوظ تتميز عنها بتعمق أكثر فى الناحية السياسية ، أعمال الأدباء
الآخرين تدور حول حدث وطنى معين فتروى أحداثا إنسانية عادية
يمكن أن تناسب أى حدث شبيه آخر ، ولكن نجيب محفوظ " يتورط "
تماما فى السياسة فيدسها فى كل سطر من سطوره وهى تنضح أيضا مما
بين السطور ، فهو يدير حوارا سياسيا مباشرا بين شخصيات رواياته ،
ويُنطق كل منها بآراء سياسية مفصلة ومحددة . ثم هى ليست أى سياسة
بل هى تصور المواقف والاتجاهات والتفاعلات فى السياسة المصرية فى
مراحل محددة وفى إطارات تاريخية ترتبط بها الأحداث وتفوح تربة
مصر من كل صفحة منها ومن كل مشهد ومن كل شخص مهما قل وزنه ومهما
تضاءل واختفى فى سياق الرواية . ما أريد أن أقوله باختصار :
إن روايات نجيب محفوظ مادة نموذجية ذات جاذبية لاتقام

للتحليل السياسى للأدب ، انها تغريه وتستدعيه فهى تربة خصبـــة وثرية ، حافلة الوطاب ، ناضجة الثمر ، إنها أكثر الروايـــات المصرية الواعدة بالاستجابة لأداة التحليل السياسى بأن تهبهـــا فى مجالها خلاصات طيبـــة .

حوار حول مفهوم "السياسة"

تجابهك من الصفحات الأولى للمرايا إدانة للسياسة ، فعلى لسان أستاذ جامعي دحرته دوامة السياسة يقول " لا يوجد مثل السياسة مفسدة للتفكير البشرى ، وهذه الكلمات تردد نفس المعنى فى لعنة الإمام محمد عبده الشهيرة للسياسة لفظا ومضمونا وكل ما يشتق منها . هذه اللعنة تجسم خبرة قائلها الذى يعبر عن واقع ممارسة السياسة فى عالمنا المتخلف وحتى اليوم ، فهى مؤلمة لا تظهر فى مجالاتها فى أغلب الأحوال سوى أسوأ ما فى طبيعة الإنسان وخلقه. هو مفهوم خاطئ ومنحرف ولكنه هو السائد ، مستمد من طبيعة التخلف والبدائية فى هذه المجتمعات ، وبعض الناس يبتعد ويؤثر حياة هادئة تظلها راحة البال والبعض الآخر مختارا أو مكرها يدور فى ساقية السياسة فهو باستمرار يعانيها ويلعنها .

وإذا كان أستاذ الجامعة تحدث عن السياسة فى الفكر فالراوى يعلق على ممارسة السياسة بين العامة والخاصة ، فيقول فى سياق حواره " طالما عذبنى التناقض بين تناول الأوساط الشعبية للسياسة وتناولها فى الأوساط الثقافية الرفيعة ، فهى هناك انفعال مضطرم سرعان ما يسيل دما ، وهى هنا مناقشات متفلسفة لا تخلو من تثبيط للهمم وتخييب للآمال .. " وينصرف هذا إلى الحياة السياسية بمصر ما قبل الثورة حيث كانت السياسة هى دراما الحياة اليومية لكل فرد . لا ينكر أحد أن السنوات السابقة على الثورة أدار فيها السياسة

المصرية إما صغار وإما كبار بَهَتوا وانتهى تماما دورهم الكبير ، أخذوا جميعا يتناوبون الظهور على مسرح السياسة والحكم بلا إنجازات كبرى . ولا يمكن لأحد كذلك أن ينكر أن كل فرد فى مصر شارك فى هذا النمط من السياسة وانفعل بها وظل فى كل لحظة ملما بدقائقها مكونا رأيا واضحا فى كل تطور فيها . السياسة المصرية فى المرحلة التى يتحدث عنها الراوى بطريقة العامة أو الخاصة ، وان حققت المشاركة بالفعل أو بالرأى ، وان جذبت اهتمام الجميع مع اختلاف درجات الاهتمام .. إلا أنها كانت كلها عبث تدور فى دائرة مفرغة وقد افتقدت تماما المثل الأعلى الذى تسعى اليه .

الاتجاهات السياسية التى ظهرت فى "المرايا"

(١) الانسان اللاسياسى : ويكون الانسان لامباليا أولا مُهتمـــا بالسياسة لأسباب كثيرة أوضح المؤلف بعضها فى روايته ، فمنها :

دكتور / ماهر عبدالكريم : هو لايبدى حرارة واضحة فى متابعـــة السياسة فضلا عن المشاركة فيها ، لأنه يمثل موضوعية العالم الجامعى ، ثم هناك سبب هام فى تكوينه النفسى وهو سماحته التى لاتدع له فرصة للتعصب لاتجاه أو التطرف فى التأييد أو المعارضة أو الترجيح الواضح الحاسم لطرف على طرف .

محمود درويش : طالب مجتهد ارتبط تماما بتحصيل العلم ،وانحصرت آماله كلها فى التفوق فيه ، فالسياسة عنده مضيعة للوقت ، وهـــو لا يفهمها ولايتابعها وليست عنده أدنى رغبة فى ذلك . أفق حياتـــه لايحوى سوى تحصيل العلم النظامى ، وهو دفاعا عن محور وجوده هذا يفقد أعصابه فيتهور معارضا جماهير الطلبة المتحمسة ، كما تحيط بـــه شبهات قوية بتعاونه مع رجال الأمن .

قـدرى رزق : ضابط محدود الأفق يعيش حياة بسيطة قوامها ملاذ الإنسان العادى . يشترك بعد ذلك فى الثورة سخطا على الفســـاد الذى ورط الجيش فى هزيمة فلسطين .

سرور عبدالباقى : مهنى ـ عالمه هو عمله بلا حد أدنى من الثقافة أو الاهتمامات العامة .

عباس فــوزى : غرق فى ثقافــة التراث فأنسته متعتها كل متعـــة

سواها ليس له رأى ثابت فى شئ فهو غير محدد الشخصية .

(٢) المثالى الليبرالى : وهل يمكن أن تكون المثالية سوى ليبرالية ؟ .. المؤلف يقدم نموذج "الفردى" المتوحد .. عالم قائم بذاته فى شخصية رضا حمادة . وان كان يقدمه فى قالب مأساوى ، فهو لا يخفى تعاطفه وإعجابه الشديد به بين كل شخصيات الرواية . وقد سندته شخصيته الأخلاقية فى مواجهة ما حلّ به من كوارث عصفت بحياته . عقيدته هى الحرية ، وقد قاوم كل عهود الاستبداد فقُبض عليه فى عهد محمد محمود ، وكاد يقتل فى عهد صدقى .. وعندما حلت ثورة ٥٢ الأحزاب السياسية قال إنه حكم عسكرى وقرر اعتزال السياسة مركزا جهوده فى مهنته . رفض باستمرار أى رأى يسارى ، وظل يردد فى إيمان لا يهتز "إن الليبرالية هى آخر كلمة مقدّسة فى تاريخ الإنسان السياسى " .

(٣) البيروقراطى : رأينا فى "المرايا" نموذجين للإدارى الناجح .. ولكن الغريب أن المؤلف مع اعترافه بكفاءتهما الإدارية وجلدهما فى العمل وطموحهما إلى الترقى بمختلف الوسائل ، جعل كل منهما متسلق انتهازى له قدرة فائقة على الاستمرار فى جميع العهود .. لا أخلاقى .. ثم ايضا اتهم كل منهما بالشذوذ الجنسى . المؤلف هنا يؤكد قاعدة بأنه لا صعود سريع إلا بالتخلى عن الاخلاق وأن "الفقر حشمة" ، هو يعتقد بذلك وإلا كانت (رادارات) مراياه التقطت صورة لإدارى ارتقى بسرعة بعرق جبينه وظل محتفظا بأخلاق حميدة هل تخلو دنيانا من هذا النموذج ، أو هو من الندرة التى لا

تسمح بانعكاس أى صورة له فى مرايا الروائيين ؟!

(٤) العلماني : ذلك الشخص الذى يرى أن العلم هو الوحيد القادر على حل جميع مشاكل الحياة ، وهو فى إيمانه الشديد بالعلم قد أهمل تماما جميع القيم الاخرى : الدين .. الوطنية .. الخ أى يرى أن العلم هو القيمة العليا التى تحكم كل القيم . يعبر عن هذا الفكر أو الاتجاه فى روايتنا " بلال عبده البسيونى " ، حيث يقول : "لامنقذ لنا سوى العلم ، لا الوطنية ولا الاشتراكية ، العلم والعلم وحده" وكل أمله الهجرة الى الولايات المتحدة " لأنى أتطلع الى بيئة علمية صحية " . وعندما يُنتقَد على ترك وطنه فى محنته يبرر موقفه " سأكون فى أمريكا أعظم فائدة لوطنى مما لو بقيت فيه ، فالعلم لجميع البشر" .
" لا نجاة للجنس البشرى إلّا بالقضاء على قوى الاستغلال التى تستخدم أسمى ما وصل اليه فكر الإنسان لاستعباد الانسان وخلق صراعات مفتعلة " . وهو يعلى مفهوم العلم ويجعله وطنه رافضا معنى الوطنية المتعارف عليه " الإنسان فى الأصل كائن مهاجر وما الوطن إلا المكان الذى يوفر لك السعادة والازدهار ، لذلك لاتُقبل على الهجرة إلا الصفوة " ويؤكد أكثر فى ايجاز " وطنى الأول هو العلم ! " ومتناسقا مع فكره يحدد مثله الأعلى أو أمله البعيد " الحق أنى أحلم بهيئة علمية تحكم العالم لخير العالم "

الاتجاه الذى تعبر عنه هذه الأفكار يعتقد فيه قليلون كلهم نخبة طبعا مثلما يقول صاحبنا لذا فوزنهم كبير ~~وعندما~~ يقدم الروائى

نموذج هذا الاتجاه لم يؤيده أو يعترض عليه صراحة ، ولكن سيـاق الحوار يشى بأنه يتعاطف معه ، تعاطف الأب السعيد بدلال ابنه ، ولا تدرى ان كان يوافق أو يعترض على رأيه أو تصرفه ، فحنان ذلك الأب لا يسمح بإدانة صريحة لشخص أو موقف او انتقاد قاس له . ومع ذلك (فالعلم والوطنية) قضية فكرية كبيرة تناولها المفكرون والأدباء وظهرت فى أكثر من صورة أدبية ، ولم يبت فيها بحكم نهائى حتى الآن ، وإلى زمن طويل بعد الآن .

(٥) " المتفرنج " او المتعلق بمظاهر طريقة الحياة الغربية :

قيل فى وصف هذه الحالة كلام كثير .. التفرنج .. عقدة الخواجة .. وعموما فحالة التخلف المعاصرة خلقت مركب نقص لدى الأغلبية العظمى من مثقفينا حاولوا تغطيتها بالتشعلق فى ركاب الغرب .. ولم يدركوا منه بالطبع إلا القشور والمظاهر .. وأقلية محدودة فهمت ثقافته واستوعبت فكره وعاشت حضارته الحقيقية . هى حالة نقص فى الأصالة، وعدم وجود اعتزاز وفخر بأواصر الانتماء . يعبر عن حالته بقوله " أوروبا روح الدنيا وأهلها ملائكة الخلق أما من عداهم فهم حيوانات أو حشرات.. " وهو دائم الانتقاد فلا يتوانى عن القرف المستمر وتحقير كل شىء حياتنا " .. ولكن هكذا أنتم أيها المصريون ، لن تزالوا غارقين فى أوهام الكلمات حتى تموتوا ، .. نيلة تاخدكم أنتم وبلدكم ! "

ويبث سموما وضعت فى شكل آراء وأحكام " إن خير ما تمخضت

عنه الحضارة المصرية هو الحشيش ومع ذلك فما أقبحه بالمقارنة بالويسكى! " ـ " أتعرف ما هى أكبر نعمة أغدقت علينا ؟ .. هى الاستعمار الاوروبى ، وسوف تحتفل الأجيال القادمة بذكراه كما تحتفلون بمولد النبى .. " ـ " المرأة المصرية هى المخلوق الوحيد الذى يستحق التقدير ، فهى لبؤة ، ويمكنها إذا مُنحت مزيدا من الحرية إسعاد هذا الشعب الذى يستحق الإبادة! "

والروائى هنا أيضا يلبس روح الأبوة والسماحة فيقدم أفكار المتفرنج الذى ينال من كل عزيز لدينا ، ويجسم سلبيات حياتنا فيجعلها بشعة منكرة والغرب الذى يعبده حافل بأضعافها من المنكرات الشائهة . الروائى يضعه فى إطار من الفكرة الملفتة والحدث المتحرك ، إنه يجعله شخصية خفيفة الظل تترك أثرا فى الذاكرة ثم أيضا يدافع عنه " لم يكن يقرر ذلك عن حقد ولا عن رأى بالمعنى الحقيقى لهذه الكلمة ، ولكن عن انفعال ، ووسط ضحكات بريئة . ولو صادق بعد ذلك شخصا يتعصب لأوروبا.. لا نقلب بنفس الحماس مدافعا عن الشرق ، فهو معارض بطبعه " . فكيف يدافع هذا الحشرة الألعبان عن الشرق ، وماذا يقول فى دفاعه؟! لم يفصّل الروائى بالطبع ، وإن كانت الخاتمة عادلة ومنطقية فقد (نفق) مع مجموعة من أسياده الانجليز حينما هاجم المتظاهرون الترف كلوب يوم حريق القاهرة وقتلوا من فيه .

(٦) <u>الإخوانى</u> : يقدمه الروائى دون تعاطف معه ويؤكد ذلك فى مستهل كلامه عنه " لم أرتح أبدا لسحنته ولا لنظرة عينيه

الجاحظتين الحادتين " . ورغم ذلك فهو يحاول بشيء من الجدية أن ينصفه فيذكر أنه موهوب ومثقف على مستوى عال وأنه امتاز بهدوء الأعصاب وأدب الحديث . ولقد بدأ هذا الإخوانى وفديا ثم صار سعديا وأخيرا انضم إلى الإخوان المسلمين ، ولكنه منذ البداية يلمس المؤلف ميله الدينى " وبالرغم من تظاهره بالعصرية .. إلاّ أن تأثره بالدين وإيمانه بل وتعصبه لم يخف علىّ " .

وهو بالطبع ينادى بأن " يحل القرآن مكان كافة القوانين المستوردة " وأن مكان المرأة الطبيعى هو المنزل ويكون إعدادها وتعليمها من أجل ذلك . ويتبلور اتجاهه السياسى فى الاسلام ولاشيء غيره .

" الاشتراكية والوطنية والحضارة الأوروبية خبائث علينا أن نجتثها من نفوسنا .. " وحتى العلم .. " لن نتميز به ، نحن مسبوقون فيه وسنظل مسبوقين مهما بذلنا ، لارسالة علمية لدينا نقدمها للعالم ، ولكن لدينا رسالة الإسلام وعبادة الله وحده ، لا رأس المال ولا المادية الجدلية .. " وكل أفكاره عهدناها فى فكر الإخوان المسلمين أو التفكير الدينى عموما إلاّ الأخيرة ، قد نعتبرها نزوة انفعال .. وقد نعتبرها نوبة تحجر وجمود وفهم خاطيء من صاحبنا كاستثناء فردى أراده الروائى لايجب البتة أن ننسبها الى الاسلام دين العلم والنور ، ولا أعتقد أن الإخوان قالوها وعموم المتدينين لم نعهد منهم مثل هذه الكلمات الغريبة عن العلم . ان كان عبدالوهاب اسماعيل قدّم كنموذج للأخوانى المتعصب فى مزاجه النفسى وفى تطوره العلمى ، وفى أفكاره وعقائده ، وكذلك فى نهايته اذ قتل وهو يقاوم البوليس فى

إحدى مؤامرات الاخوان ، إلاّ أن الفكرة الأخيرة ـ وهى الحملة على العلم ورفضه ـ من الإنصاف أن نقول إنها لا تمثل فكر الإخوان ... فلم يذهب الغلو فى التعصب بهم ، كتنظيم أو كأفراد إلى هذا المدى .

(٧) الرأسمالى : فى المرايا نموذجين للرأسمالى أولهما يتخفى وراء قشرة التدين ولكنه يأثم بقصد وتدبير فيتعامل فى السوق السوداء وينتهز فرصة الحرب ليثرى ثراء فاحشا ، وينهى كل ذلك ضربة قاصمة بتأميم شركة المقاولات التى يملكها ١٩٦١ " وهكذا تقوّض ذلك البناء الشامخ الذى نحتت أحجاره من الذكاء والغش والارادة والانتهازية والإيمان والفجور " .. وإن كان هذا النموذج تاجر بالسليقة يمارس بلا فكر .. فالرأسمالى الثانى يفلسف وضعه .. هو رأسمالى ذو أيديولوجية يستطيع التعبير عنها بوضوح . يقدمه الروائى كرجل بلا قلب ، لم يرطّب جدب روحه أو يرويها أى معاملة عاطفية "ولا جرب الحنان أو الرحمة ، كأنما كان يتكون فى معسكر لإعداد الإرهابيين .. " ومنذ الصغر اتخذ من القرش معبودا ومقياسا للرجولة والتفوق " . هذا هو زهران حسونة ، يبرر تكوينه ساخرا بقوله " لافرق بينى وبينكم الا أننى صادق غير منافق ! " ولا ينسى أن أن يؤكد نسبية الشرف فان " الشرف تتغير معانيه من بيئة لأخرى " وتتوالى بعد ذلك آراؤه : " لولا الانجليز ، لولا اليهود ، ماكان لهذا البلد حياة ! " " كم أتمنى أن أهرب أموالى وأهاجر ! لم تعد مصر بالمقام الصالح للأذكياء ! " " لاوطن بعد اليوم إلاّ وطن

المصالح ، فإمّا أن تكون أمريكيا وإما أن تكون سوفيتيا ، إما أن تقبل الحرية والإرادة الخلاقة والانسانية وإمّا أن تقبل النظام والعدالة العمياء والإرادة الميكانيكية ! فقد الأمل في الانجليز ، وأصبح حلمه الذهبي أن تسيطر أمريكا على الشرق الأوسط وأن تحدد له مدارا حضاريا في مجالها الحيوي يلعب فيه العرب واليهود دورا متكاملا " .

.. هكذا أعماه المال فأفقده الوطنية والإحساس الإنساني ، فشمت في كل ضيق ونكبة ألمت بالوطن ، ولم يفْتُر نهمه للمال في شيخوخته بل تزايد ، عاش متأبدا كحيوانٍ برية يتبعد في محراب المال وكل ماسواه باطل .

(٨) الشيوعي : قدم الروائي هذا الصنف بسخاء ووفرة . كل صنف من الأصناف السابقة اقتصر على تقديم نموذج أو اثنين ، أما هذا فقدم فيه سبعة : خمسة رجال وسيدتين . وكلهم شيوعيين في ثياب وفدية كما يعبر عنهم أو بتعبير أكثر تحفظا الجناح اليساري للوفد ، ماعدا واحد منهم شيوعي أصلي ، وواحد آخر ليس شيوعيا ولكنه يتعاطف معهم ويشاركهم أسس فكرهم وخطوطه العريضة . ووفرة الصنف الشيوعي في المرايا له تبريره ، فالمرحلة التي يسجل لها الروائي سمحت أن يطفو هذا الاتجاه على السطح في دنيا الفكر والصحافة ومنابر الاعلام ، كان صوتهم أعلى وشعارات " التقدمية " تدوي وتجعل الاتجاهات السياسية الأخرى تتوارى متخاذلة تجمع شتات نفسها وتراجع دعائم فكرها لتستمد منها زادا معنويا تستعين به على الصمود .

نبدأ بالشيوعى الأصيل ، فنجده يعتقد بالشيوعية ومادّيتها الجدلية فكرا فقط ويُتهم خطأ بالنشاط العملى وهو لم يمارسه فيعتقل خمسة أعوام ويخسر وظيفته كأستاذ بالجامعة ، وهو يحافظ على العبادات بتأثير تربيته الدينية . الروائى لايورد على لسانه آراء محددة تعبر عن عقيدته أو اتجاهه السياسى ولكنه يغلّب فيه سمة الأخلاق القوية فهو متطرف فى نزاهته واستقامته بدرجة لاتسمح له بالاستمرار فى المناصب الكبرى .

أما شيوعيو اليسار الوفدى : فأحدهم أستاذ جامعة أيضا ، تبرأ من شيوعيته مبكرا لأنه " من الشيوعيين المتجددين ، الذين يتطلعون دائما الى الحرية " ، وآمن بالثورة ونظامها الاشتراكى ، وبموقفه هذا أحفظ عليه الرفاق فتباعدوا عنه ، وعندما يرجعون إلى نفس موقفه يستمرون فى نبذه فلا يشركونه فى مكاسب المناصب الكبرى .

والثانى فيه من الانحلال أضعاف مافيه من عقيدة ، فهو ضعيف صاحب " غرزة " يتخبط وتدفع ظروفه وشخصيته بزوجته إلى الانحراف وإدمان الأفيون .. ولكنه يظل على إخلاصه لها بدون حدود لقد اعتنق الشيوعية باعتبارها حلاً لمشكلات العالم .. ولمشكلته أيضا .. ولكن تفككه وتحلل شخصيته لم تسمح بفرصة لأى حل .

وآخر يؤمن بأن " لانجاة للعالم إلاّ بالشيوعية العالمية " ورغم إيمانه ذاك فلا يخلو رأيه من انتقاد فالمعارضة تغلب وتبرز فى طبعه

" الشيوعية نظام عظيم حقا ولكن ماهو الإنسان الشيوعى ؟ .. هو شىء ميكانيكى لا إنسان حى " ثم يتململ من وطأة الحكم الشمولى " ماجدوى أن نتحرر من طبقة لنقع فى قبضة الدولة الفولاذية ! .. السلطة الحاكمة أثقل من الطبقة ، أثقل من الشيطان نفسه ! " .

والسيدة الشيوعية أصلها وفدية أيضا ، فهى " امرأة مصرية معذبة من ضحايا فترة الانتقال " .. وهى ذات ثقافة تستحق التقدير ـ ولا تحترم القيم البورجوازية فهى تخالط الرجال ندا لهم فى جلسات جروبى وتظل طوال حياتها تتصرف باستقلال وتحرر .

وننتهى إلى ذلك الذى يشاركهم الخطوط العريضة لفكرهم ، منطلق فكره " إننا مطاردون ، يطاردنا التخلف ، وهو عدونا الحقيقى لا إسرائيل " وهو أيضا كمؤيد مخلص للثورة يقرر " لست شيوعيا ، ولكنى أرحب بالتعاون بين الثورة وبينهم ، فالثورة والشيوعية تياران ينبعان من مصدر واحد ويهدفان فى النهاية إلى أغراض متقاربة .. " وبعد تلخيص النماذج المنتمية للفكر الشيوعى فى المرايا ، يمكننا أن نحدد خصائص عامة لهذا النموذج : فكلهم ذوى اهتمام بالمسائل الاجتماعية والأفكار الاقتصادية وذوى ثقافة شاملة وعميقة ، ثم يجمعهم أيضا الانحلال الخلقى فلعلهم يطبقون عقيدتهم فيعيشون فى شبه شيوعية جنسية . سياسيا انتموا جميعا إلى يسار الوفد لأنه كان الجهة الوحيدة المشروعة قانونا والمعقولة اجتماعيا وفوق ذلك ذات التأثير الحقيقى فى جماهير الشعب .. أما بعد الثورة فقد عادوها

فكريا فى سنواتها الأولى ثم أعلنوا ولاءهم الكامل لها ولتنظيمهـــــا السياسى ٠

(٩) **الانتهـــازى :**

أجاد الروائى فى تقديم شخصية الانتهازى دكتور زهير كامل ، ذو القدرة على التلون الفورى والفجائى بغير تحفظ أو حياء٠ دون سابق انتماء وفدى رشح نفسه على مبادئ الوفد فاكتسح ٠٠ وقامت الثـورة فأصلى الوفد شواظ اتهامه يرميه بأنه منبع كل فساد ٠٠ وفى كل أزمات الثورة الكبيرة : العدوان الثلاثى ثم نكسة ١٩٦٧ كاد ينقلب عليها ٠٠ لم يؤخره سوى أن الأزمات مرت دون إجهاز عليها ٠

وكانتهازى مثقف على أعلى مستوى متوافر ، هو يفلســـف انتهازيته ، ونرى واجبا أن نقدم كلمات هذا النموذج الطريـــف ـ فشرّ البليـــة ما يضحك ـ فى تبرير تأييده للثورة وانقلابه على الوفـــد " لم تكن ثمة جدوى من المقاومـــة ولم أقاوم ! " ويكمل " كنت على وشك الإفلاس ، ولكن لم يكن المال وحده هو الدافع فأنا مطمئن الضمير ! " ولن يغلب كل صنف من الناس فى المحاولات المفتعلة لإراحة ضميره ٠٠ هكذا الدنيا ٠٠ !

ملاحظات على الاتجاهات السياسية السابقة :

١ـ الوفـــد : لم نعبر عنه كاتجاه سياسى مستقل لأنه خلفية الروايـــة كلها ، وأفردنا له صفحات مستقلة تالية ، لأهميته الشديدة ودوره الخاص ، ولأنه ليس اتجاها سياسيا متميزا ، بل كان الأمة المصريـــة

كلها ، كان هو تيار الوطنية الجارف ، الذى ضم كل متناقضات الأمة وألوانها واتجاهاتها السياسية .. هذا فى أيام مجده وعنفوان قوته .. ولكن مع اضمحلاله وتسرب الفساد والضعف إليه فقدَ دوره وأفرز عديدا من الاتجاهات السياسية بدأت تشكل أو تنضم الى تنظيمات مستقلة يضم كل منها اتجاه سياسى واحد .

٢ — الشيوعيون : نشاطهم السياسى كتنظيم سرى — تحت الأرض — جرّمهم القانون كأخطر ما يهدد النظام العام ، وعاملهم المجتمع باستمرار كفئة منبوذة مطاردة ، مشبوهة ومحاصرة على الدوام . حالهم هذا الذى استمر خلال تاريخنا السياسى الحديث لم يُشر إليه الروائى — ولعله لم يجد مناسبة لذلك — إلا إشارات طفيفة ضاعت فى سياق الأحداث ، وقد أبرز الروائى النماذج الشيوعية خلال سنواتها الذهبية عندما استدعت الظروف السياسية بعد الثورة التقارب مع الاتحاد السوفييتى ، هنا بدأ يرتع الشيوعيون ويقتنصون فرصا لم تسنح لهم أبدا من قبل فلا غرابة أن تجد جميع شيوعيى " المرايا " يؤيدون الثورة فذلك حدث فى المرحلة التى صارت فيها أهداف الطرفين مشتركة .

٣ — الرصيد الدائم لأى عهد ونظام : البيروقراطى والانتهازى يسايران مختلف الأنظمة . اذا ما أهملنا اللاسياسى فهو سلبى منقاد — أما العلمانى والتكنوقراطى فهو رصيد دائم للنظم القوية الناجحة فقط التى تقدم له المقابل المجزى لجهوده ، بصرف النظر عن ألوانها السياسية .

٤ — إبليس السياسة فى " المرايا " :

هو الدكتور ابراهيم عقل ، فهو لم يرد اسمه بالرواية فى أى مناسبة إلا حلت عليه لعنة الراوى ومن يتحدثون معه . هذه اللعنة التى التصقت به غريبة وغير مبررة . فهو أستاذ جامعى قدير ذكر أحد الكتاب أنه " عقل قد بشر فى وقت ما بثورة فكرية فى حياتنا الثقافية " ولم ينصح طلبته سوى بالتمسك بالمثل العليا وعبادة الحقيقة . الاتهامات التى وجهت للدكتور عقل أنه ملحد طعن فى الإسلام فى رسالته للدكتوراه المقدمة الى السوربون ، وهذه يقدمها الكاتب فى صورة الفرية أو الحقيقة المحرفة والمبالغ فيها إذ يقول إن الذى ردد ها شخص لا خلاق له . وما يحسب عليه سقطة ثانية مقالة له يدعو فيه للولاء لصاحب العرش وبنوه بأياد يبعض أفراد أسرته على نهضة البلاد . وهذه اذا اعتبرناها خطيئة — وفى ذلك كلام كثير — فهى ليست بالتى تهدم أستاذا فى مكانته وتجعله منبوذا مطاردا يقول عنه الراوى " كنا نلقاه بالاحترام اللائق بمركزه على حين نضمر له الاستهانة والسخرية " وهناك رأى أميل اليه كتفسير لنكبة الدكتور عقل هو " أنه ضحية لمجتمع فاسد لم يغفر له انهزاميته .. إذ لم يكن ذا طبيعة مقاتلة ، ولاقبل له بتحدى الرأى العام "

ويكفى لكى ندرك مدى بشاعة هذه الإدانة المتطرفة ، أن رجلا مثل دكتور ماهر عبدالكريم التف الجميع حوله بود وولاء تسرددت عنه إشاعة قوية أنه فى فترة الاغتيالات السياسية بعد الحرب العالمية

الثانية رفع خطابا سريا إلى الملك فاروق يحذر من مغبة التمرد الذى يجتاح الشباب . واتهموه أنه يقترح على الملك ثورة مضادة لتغادى الثورة الحقيقية . ورغم الإشاعة والاتهام فقد ظل قطبا أثيرا لديهم يحيطونه بالتقدير والاعتبار .

هل كان الدكتور عقل ضحية كراهية الناس .. أو كراهية الراوى له فجعله فى صورة مشوهة كما جعله يُلعن فى كل مناسبة ؟.. فانى أرى أن " الخطيئة — ان عدت كذلك — متشابهة للرجلين ، فهل كان الأول عندما " اقترفها " علانية يمارس شجاعة " مش قدها " أم أنه كان عقلا مخلصا ومسالما أزيد من اللازم فى وسطٍ أرعنٍ بلا عقل ؟!

أحداث الواقع السياسي المصرى من خلال "المرايا"

فى عرضه للشخصيات تعرض الروائى لكثير من الأحداث الشهيرة ، الصغيرة والكبيرة التى مرت بنا خلال تاريخنا المصرى. سجل هذه الأحداث سواء لأن شخصياته شاركت فيها أو ذكرتها خلال الحوار. يهمنا حصر هذه الأحداث فى سياق زمنى مسلسل .

(أ) سياسة مصر ماقبل الثورة ، تحدث عنها من خلال الوفد : سياسته ومواقفه ، فأورد أهم الأحداث السياسية والعامة وهي : مظاهرة لتأييد سعد فى خلافه الدستورى مع الملك فؤاد - جنازة سعد - وزارة محمد محمود (اليد الحديدية) - مظاهرات ضد ديكتاتورية محمد محمود وضد اسماعيل صدقى - استغلال صدقى لبنك التسليف الزراعى ضد خصومه - الأزمة الاقتصادية - المعرض الزراعى الصناعى ١٩٣٣ - الحرب العالمية الثانية - حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ - انتخابات مجلس الشيوخ عقب الحرب - وباء الكوليرا فى مصر سنة ١٩٤٧ - حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ - إلغاء المعاهدة وكفاح الفدائيين ضد الانجليز فى القنال سنة ١٩٥١ - حريق القاهرة ، وإقالة حكومة الوفد بعدها .

(ب) ثورة ١٩٥٢ : الإصلاح الزراعى - التسليح من الشرق وتأميم القنال - العدوان الثلاثى - القرارات الاشتراكية - حرب اليمن .

(حـ) ٥ يونيو ١٩٦٧ : الضياع والتوتر بعد النكسة .

(أ) الوفـــد :

حديث الروائى عن الوفد نابض بالحب عامر بالوفاء ، فهـــو يعتبر الانتماء الوفدى مرادف للوطنية الحقة فى أسمى معانيهـــا . تنطلق هذه الحقيقة من رجل وطنى كان زعيما للطلبة الوفديـــين " الوفد فى حياتنا يمثل عصر الفتوة والبعث ، دلنى على أى فـــترة منذ عهد ماقبل الأسر حتى اليوم ساد فيها الشعب وتعملق كما ســاد وتعملق أيام الوفد ؟ " وعلى لسان طالب وفدى يسارى " لاتحـــترم طالبا غير مهتم بالسياسة ، ولاتحترم مهتما بالسياسة ان لم يكن وفديا ، ولا تحترم وفديا ان لم يكن فقيرا .. " . وعلى لسان المثقف المستقيم ذو الخلق الصلب " قل فى الوفد ماشئت ولكن لاتنس أنه كان حزبـــا شعبيا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، وانه كان يغير سياسته أحيانا إذعانا لمشيئة التلاميذ بالمدارس الثانوية ! "

وفى تقديمه لمختلف الشخصيات يتابع تطور الزعامة الوفدية ، يرفع سعدا الى ذروة الرفعة وقمة الخلود ، ففى حديثه عن مـــدرس وطنى " وكان يحدّث عن سعد زغلول وكأنه ولى من أولياء اللـــه أو صاحب معجزات ، معتبرا زعامته رسالة سماوية ومعجزة تاريخيـــة .. وكان يقول : ببلاغته عبّأ الشعور ، وباسمـــه قامت الثورة .. " . وفـــى حديث آخر عن الزعامة الوفدية " كان سعد زغلول عبقريا ــ أما مصطفى النحاس فإرادة نقية " . ويستمر حديث آخر عن النحاس " لقد عبدنا مصطفى النحاس يوما لاالشئ إلا لنزاهته وصلابته فى الحق " . وعندما

دب الشقاق بين زعماء الوفد تمزقت جماهيره لأنها آمنت بهم جميعا وعرفت لكل منهم فضله ، وفى هذا يقول زعيم الطلبة الوفدى " لم أحزن فى حياتى مثلما حزنت للخلاف بين مصطفى النحاس والنقراشى ، كان النحاس زعيمى ، وكان النقراشى أبى الروحى ، ولم أتصور الدنيا صالحة للحياة مع وجود عداوة بين الرجلين " ،وزعيم الطلبة نفسه معبرا عن الجماهير التى قدّرت دور الوفد الوطنى والتى قدّرت أيضا الأعمال المجيدة للثورة ولكنها لا تغتفر لثورة يوليو محاولة النيل من زعامة سعد زغلول ، يختم حديثه عن الزعامة الوفدية " هل شاهدت جنازة مصطفى النحاس؟ .. كانت رد اعتبار شعبى لسعد والوفد ولأكبر ثورة شعبية فى حياتنا .. "

إن الراوى فتح عيونه على معانى الوطنية فى أول مظاهرة يشترك فيها فى حياته عام ١٩٢٤ . لقد خطب فيهم زعيم الطلبة يدعوهم إلى الإضراب لأن الملك فؤاد يريد التلاعب بالدستور وسعد رئيس الوزراء يدافع بصلابة عن حقوق الشعب ، وعليهم الذهاب الى ميدان عابدين فى مظاهرة لتأييد الزعيم .. وقد حدث .. اذ اكتظ الميدان عن آخره بالطلبة وجماهير الشعب التى راحت تدق باب القصر بأيديها هاتفة " سعد أو الثورة " ..

هو إذن مشهد وطنى عزيز حُفر فى الذاكرة كخبرة شخصية بكر لا تنسى ، فالراوى فى تعبيره عن دور الوفد فى حياتنا يكتب بشعور وفدى أصيل .. وفى .. يدين للوفد بولائه كله الفكرى والوجدانى

فى إخلاص عميق • فالوفد هو الحقيقة الوطنية الكبرى فى مصر ما قبل الثورة ، وكان الشعب كله وفد بمختلف ميوله واتجاهاته وعقائده ، ضم الأضداد المتطرفة فخرج من بين جوانحه الشيوعى والإخوانى وتعاطف معه حتى أولئك الأفراد البسطاء الذين لايلمّون بألف باء السياسة الوطنية• وسجل المؤلف أيضا للوفد كتيار شعبى دوره فى إثارة المظاهرات ضد ديكتاتورية محمد محمود واسماعيل صدقى ، وقبلهما سجل لسعد أنه عندما ولى الوزارة رغم إشفاق بعض المخلصين من هذه التجربة وأملهم فى أن يبقى قائدا شعبيا ورمزا روحيا باسقا - غير حكومى - للوطنية المصرية ، أنصف سعد الوطنيين وأخرج المجاهدين من السجون وعزل أدوات الاحتلال وأذنابه الذين كانوا على الشعب سياط نكال وعذاب •

تعكس " المرايا " الصورة العظيمة المشرقة للوفد المصرى، فهل عكست أيضا أخطاءه وسلبياته ؟ أكبر ما يؤخذ على الوفد من أخطاء هو حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ ، انه أحد الندوب الغائرة فى جبين الكرامة المصرية ، وسيظل لسنين طويلة معينا لا ينضب لمزيد من حقائق جديدة تكشف ودراسات تحليلية متزايدة عنه • يسجل المؤلف رد الفعل المباشر للحدث " وغداة ٤ فبراير ١٩٤٢ ثار أذيال الأحزاب من الموظفين فاتهموا الوفد بالخيانة أما الوفديون فقد فرحوا وطربوا " وواضح أن الكاتب من شيعة الوفد الفرحين ، ونفس كلمته (أذيال) فيها دلالة كافية عليه كوفدى متعصب لوفديته - ثم يؤكد ذلك دفاع اثنين من غلاة الوفديين واللذين قدمهما المؤلف بإعزاز وتقدير

شديد بأن مصطفى النحاس قد أنقذ الوطن والعرش فى مرحلة حرجة .

لم يفض الراوى فى حديث ٤ فبراير أكثر من ذلك ، ولكن تناثرت فى طيات " المرايا " أصوات أخرى ارتفعت ضد الوفد ،هذه الاصوات هى على التحديد :

١ — أنصار الحزب الوطني : وجدت منافسة تقليدية وشديدة بينهم وبين أنصار الوفد للمعاصرة والتنازع على دور قيادة الحركة الوطنية المصرية واستقطاب جماهير الشارع المصرى . أحد أنصار الوطنى فى " المرايا " يصم الوفد بأن سياسته دائما أنصاف حلول ، ثم يضيف " رحم الله زعماء الحزب الوطنى ، عرفوا الحياة تضحية وجهادا لاسياسة ومهادنة " .

٢ — طوائف اليسار التقليدى : مع انتمائها لليسار الوفدى فقد اعتبروا الوفد تيار إصلاحى يؤخر الثورة التى ستنضج بسرعة لو استشرى الفساد بالتمكين للملك وأحزاب الاقلية .

٣ — بعض أنصار الوفد المشفقين من حالة ضعفه : يقول أحدهم " أصبح الوفد كزعيمه فهو شيخ هرم طيب " وعندما أصبح بعض الانتهازيين نواب وفديين يتعاونون مع المستغلين والمنحرفين حزن محبو الوفد لتطرق الفساد اليه والذى أفقده ميزته على الأحزاب الأخرى . ثم كان القرف والمرارة الكبرى بعد هزيمة فلسطين التى كان من آثارها ظهور السخط على مسببات الهزيمة ومن ضمنها يعتبر أحد الضباط المتعاطفين مع الوفد " ضعف الوفد الذى عجز عن تحقيق الإرادة الشعبية .. وأن الوفد هو المسئول عن تخلى الشعب عن ثوريته ! " .

٤ـ أفراد من شباب الجيل الجديد : أورد كلمات بنصها وردت على لسان أحد شباب مابعد النكسة " كان أبى وفديا يقدس سعد زغلول ومصطفى النحاس وأنا أعتبر ذلك مضحكا . فقد ثبت أنهم أصنام لا أكثر ولا أقل " . وهذا الحكم طبعا بدون حيثيات ولايعتبر تقييما ولاحتى رأيا تظهر مبرراته ودوافعه وأسسه المنطقية فهو أقرب الى الرعونة والجهل ، ولايمكن اعتباره إلا حالة نشاز ونموذج روائى " للعرض فقط " . غالب اعتقادى ـ بل أجزم وأومن ـ أن أجيالنا الجديدة الصاعدة وإن بدا من أفراد منها مظاهر زيغ وانفلات فكلها تقدس قيم الوطنية ويجد زعماءها وروادها لديهم التقدير السليم .

(ب) ثورة ١٩٥٢ :

ثورة يوليو فاتحة عصر سياسى جديد فى مصر . . هى نقلة كاملة من نظام وظروف الى أخرى مخالفة ومغايرة تماما . . وفى كل شىء . كيف سجل الروائى حدث ثورة يوليو وتطوراتها فى مراياه ، نلتقط انعكاسات الثورة فى اللمحات التالية :

١ـ تقبل الشعب للثورة : يقول أحد الضباط الأحرار بعد ثورتهم " اندثرت القوى الجهنمية التى كانت تعوق تقدم الشعب مثل الملك والانجليز والحكام الفاسدون ورجع الأمر الى أبناء الشعب الحقيقيين . فهو حكم الشعب للشعب لخير الشعب . انتهى الفساد والانحلال وسينطلق تيار الإصلاح والتقدم الى الأبد . . " وهو تعبير دقيق عن حالة الشعب المصرى مع انبثاق ثورة يوليو التى كانت معقد طموحه

ومثابة آمالــه .

٢ ـ الذين ضربتهم الثورة فور قيامها : " المرايا " تقدم بعض نماذج هامشية من بقايا العهد الملكى البائد تخلصت منها الثورة ولأنهـــا ثورة بيضاء فقد كانت تكتفى بالإحالة للمعاش . أولهم ضابط بوليـــس سياسى له سجل حافل فى تعذيب الوطنيين .. فهذه وظيفتـــه ، والثانى موظف قدمت عرائض إلى لجنة التطهير تمس نزاهته ولكنه لـم يُدَن واستمر فى عمله .. قيل لأنه لم يثبت شىء .. وقيل إنها شفاعـــة ابنه الضابط .

ثم نموذج هامشى آخر لم يوجد تناقض بين الثورة وفكره الحـــر وعمل لها بإخلاص ولكنه أُخِذ ظلما فى مؤامرة اتُّهِم بها بعض أقطاب حزبه ، فقبض عليه لفترة ثم صودرت أملاكــه .

هذه الأمثلة تؤكد حقيقة ليست محل جدل وهى أنه فى بـدء ثورتنا كانت إجراءاتها الإصلاحية معقولة .. وقد يحدث خطأ أو أكثـــر ولكنه الاستثناء الذى لا يقاس عليه .

٣ ـ تحويل فئات من اللامبالاة بالحياة العامة إلى اهتمام بمتابعـة تطورات السياسة والأحداث الكبرى فى الوطن : قرارات وإجراءات التحول الاجتماعى مسّت فئات من الشعب بالطبع ، رأت القـرارات السياسية تصل إليها فى عقر دارها .. فانتبهت وتابعت باهتمام .

من هذه الفئات طبيب دنياه هى مهنته فهى أمل حياته وقد تحقـق ، وهو منكب تماما على حياته الخاصة وقدمّن الله عليه بالرغد والبحبوحـة .

لم يفكر أبدا فى السياسة أو الأمور العامة وماله ومالها وهو ينعم بالطمأنينة والاستقرار ودف تحقيق آمال معقولة . وتأتى الثورة لتحرث تربة الوضع الاجتماعى المصرى ، مستهلة أعمالها بالإصلاح الزراعى فتطير من ملكية زوجته بجرة قلم خمسمائة فدان " وذهل الرجل الذى تعود على تقديس المال والملكية ، ونبض قلب اسرته بالعداوة ، وعدّ هو ضمنا من الأعداء " لقد أبدله القدر بالطمأنينة خوفا ، وفرض عليه متابعة أخطار متوقعة " وبدءا من ذلك التاريخ مضى يهتم بالحياة العامة ، والسياسة بصفة خاصة — التى تجنبها طوال حياته — بعد أن غزته فى صميم داره " .

والآخر تاجر ذكى .. ناجح فى عالم المال .. نموذج للرأسمالى المصرى .. لم يذكر الروائى أنه أضير من قرارات الثورة " فالثورة لم تقتحمه بصفة عامة إلا أنها زعزعت طمأنينته وأقلقت ثقته . وأدرك — وإن لم يكن هدفا مباشرا — أنه ضمن الجبهة التى تهب عليها العواصف وأنها قد تقتلعه عاجلا أو آجلا " .. إنه نموذج آخر أجبرته الثورة على الخروج من أوكار الذهب واللذة ليهتم بأحداث السياسة ويتابع اتجاهات الريح .

٤ — الثورة والقوى السياسية فى المجتمع المصرى : متابعة عملية التحالفات والمصالح المتغيرة فى مجتمعنا بعد الثورة عملية شائقة .. فهى شطرنج سياسى ممتع .. لمن يتابعه من خارجه أو يسجله بعد ختامه . لقد سجلها الروائى بأمانة وإتقان من خلال شخصيات روايته .

الليبراليون والمؤمنون بالديمقراطية الغربية التي مارستها مصر منذ بدأ تطورها الدستورى فى العصر الحديث ، توقعوا فور قيام الثورة عودة الوفد ولكن مع حل الأحزاب انهارت آمالهم وكان التعليق " نحن مقبلون على حكم عسكرى لن يعرف مداه إلا الله " . وينضم إليهم فى الرأى يسارى تغلب عليه روح المعارضة للمعارضة "هاهم يقضون على القوى الإيجابية فى الأمة فلاشيوعية ولا إخوانية ولا أحزاب فعلى من يعتمدون فى تحقيق سياستهم ؟ ولم يبق إلا الموظفون المأجورون ، وسيقيمون بنيانهم على قوائم من قش .. "

الرأسمالى : يزيد نشاطه بعد الثورة ، ولكن تأتيه الضربة القاصمة سنة ١٩٦١ فتؤمم شركته مع غيرها من الشركات .

الإخوانى : بدأت الثورة فى حلف قوى معهم ، إخوانى " المرايا " أدركته الثورة يحارب الوفد ويدافع عن الدين الاسلامى ، فكانت آراؤه مواتية لاتجاهات الثورة الجديدة ، ولكن سرعان ما انتهى شهر العسل مبكرا جدا . حيث ضُرب الإخوان وتوالت مؤامراتهم .. وصاروا عدو الثورة الأول .

الشيوعيون : تحسنت أحوالهم بدورهم فور قيام الثورة ، ولكنهم ظلوا يعادونها بدافع (أيديولوجى) لأنهم اعتبروها حركة إصلاحية قامت بها (البورجوازية) المصرية وليست ثورتهم الطبقية (البروليتارية) المنشودة . ثم أطلقوا زغاريد النشوة مع صدور القرارات الاشتراكية واعتقدوا أنها بداية الطريق إلى جنّتهم الماركسية الموعودة ،

فما نقوا السلطة وبدأ الالتصاق الوثيق بعد إخراجهم من السجون لينتشروا فى المراكز الكبرى لأجهزة ومؤسسات الإعلام والثقافة . هذا ما تسجله " المرايا " لطقم الشيوعيين الذى تعرضه فتوزع جزئيات هذا التطور العام السابق بيانه على الرفاق .. كل فيما يخصّه . ولا بأس من بعض التفصيل لأحد غلاتهم .. ذلك المعارض بطبعه — يمهد الروائى بأنه " عمل فى جريدة الثورة واضعا قلمه فى خدمتها — ولكنه تكشّف لخاصته المقربين عن حزمة من المتناقضات جعلت منه فى النهاية شخصا مجهول الهوية " . تحمس لإلغاء الملَكية ثم قال جاء محلها عدد غير محدود من الملوك ! وتعليقا على تحديد المِلْكية الزراعية يفتى بأن المسألة ملْكية او لاملكية أمّا توزيع الأرض على الفلاحين فيقوى فيهم غريزة الملكية المتوارثة من عصور الظلام . ثم عندما تحل الأحزاب يتساءل " وكيف تمضى البلد بلا قاعدة شعبية ؟! " .. والعيّنة بيّنة .

٥ — ملامح شخصية لأحد رجال الثورة : نقدم خطوطها العريضة كختام لحديثنا عن ثورة ٥٢ فى " المرايا " . ذكرنا أنه ضابط ليست له اهتمامات سياسية أو عامة ، ظهرت له فى مناسبة واحدة ميول وفدية . أُصابته هزيمة حرب فلسطين بالإحباط والسخط وهو حال الجيش المصرى والجيوش العربية عموما . له قدرة فائقة على الكتمان إذ لم تظهر منه أى بادرة عن اشتراكه فى الثورة . آمن مخلصا بكل خطوات الثورة وبرر قراراتها ، ولقد أراد دائما أن تبقى الثورة وتنتصر مهما كان الثمن . وعن تكوينه الفكرى يؤكد الروائى أنه كان بورجوازيا ذا السان

اشتراكى " يمكن تعريفه بدقة على ضوء الميثاق ، فهو يؤمن بالعدالة الاجتماعية إيمانه بالملكية الخاصة والحوافز ،ويؤمن بالاشتراكية العلمية إيمانه بالدين ،ويؤمن بالوطن إيمانه بالوحدة العربية ، ويؤمن بالتراث إيمانه بالعلم ،ويؤمن بالقاعدة الشعبية إيمانه بالحكم المطلق " .

(حـ) هزيمة يونيو ١٩٦٧" أثرها المباشر فى نفسيات المصريين " :

فى حديث المؤلف عن عديد من الشخصيات يصور سعادتها بكارثة الوطن فى ٥ يونيو ١٩٦٧ ، وذلك بكلمات عديدة " شماتة " أو" سُرَّ فى أعماقه " أو " استردّ أنفاسه بعد النكسة" .. وغير ذلك من المترادفات التى تعبر عن نفس الحالة . وهو بالنسبة لمجموعة أخرى من الأشخاص يصور النكسة بوقعها الحقيقى على كل وطنى مخلص وهى أنها زلزال حدث بعده الذهول واختلال التوازن والتخبط.. ثم بعد فترة بدأ التماسك ومحاولة التماس مختلف السبل لاسترجاع ماضاع .

الصورة الثانية هى الطبيعية.. وهى رد الفعل الوطنى المتوقع ومع ذلك لا ينكر أحد أن قطاعات ليست قليلة ممن يعيشون فى هذا الوطن أدركهم نوع من الراحة النفسية.. أو نوع من الفهم لاوضاع كانت غامضة .. قلقة.. ولا يمكن وصف شعورهم بالعبارات التى أوردها الروائى والتى قد يُفهم منها أن كل هؤلاء الأشخاص مستعدون

لبيـع وطنهم للشيطان .. وأن سعادتهم فى تدمير وطنهم وخسارته لحساب أخسّ أجناس البشر وأحقرها . يوجد خونة ينتابهم مثل هـذا الشعور الآثم ... ولكنهم فى وطننا مصر تلك الأرض الطيبة التى لـو انتمى اليها أعتى المجرمين وأحط الأشرار لما فقدوا أبدا معـنى الوطنية .. مصر أم الحضارة والعراقة .. لم يزد من عق وأبق من خـير الصدر الحنون فى أكثر مراحل تاريخنا ظلاما وتدهورا عن آحـاد يعدّون على الأصابع .. ولا يمكن أن ينتاب شعور السعادة بنكبـة الوطن فئات عريضة من المصريين كما قد توحى بعض العبارات فـى " المرايا " . ولابد من شىء من الإفاضة فى تفصيل معنى " الراحـة النفسية " و " عودة منطق الأمور " التى شعرت بها فئات عديدة فـى بلدنا .

كانت طبقات الزيف تتراكم فلم تعد ثمة حقيقة مؤكدة فى هـذا الضباب الكثيف من اللا أخلاقية ، وكانت القيم تتهاوى إلى دركـات حضيض لم يصل الخيال فى أى لحظة من تاريخ مصر إلى أنها يمكـن أن تصل اليه ، فالمصيبة الجديدة فيه أن كل ذلك كان يتم بتبريـر " فكرى " متكامل وباسم مبادىء وأهداف عليا للمجتمع .

وبينما المواطن البسيط فى مصر يرى كل شىء فى بلده يتحـلل ويصير هلاميا بلا قوام .. والبديهيات التى استقرت فى أعماقه منـذ آلاف السنين : مثل الدين ، مبادىء الأخلاق الأساسية ، أساسيات القيم البسيطة فى تعامل البشر وعملهم ومختلف حاجات معايشهـم

وتضامنهم أمام تحديات الحياة ، كل ذلك تعرّض للنقض والتشكيك ، فعاش كل مواطن بسيط فى محنة ٠٠ فى كابوس ثقيل ، غريب الطبيعة وغير قابل للتشخيص ٠ عاش انفصاما لامعقولا أوشك أن يورده مورد الجنون : كل شىء يضعف ويتحلل ٠٠ وكل لمحة جدّية أو إخلاص تتلاشى فتصير أسطورة ومدعاة سخرية ووصمة سذاجة ٠٠ وبعد ذلك كله كانت أبواق دولة الأغوات تزعق بأننا أقوى دولة فى الشرق ٠٠ وأغنى وأعظم دولة فى الشرق ٠ فكانت الأبصار الحائرة المتألمة تتردد فى السماء : هل هذا حقيقى يارب ؟ وهل رتبت لنا مثل هذه النتيجة على كل ماسبقها من أسباب ؟ ورغم كل ذلك فكل تحمل وألم يهون فى سبيل مجد الوطن ٠

لقد طفا على سطح الحياة السياسية فى مصر فى هذه المرحلة المظلمة شراذم من الأفاقين والمرتزقة الذين باعوا الصدق والشرف وحصلوا على مكاسب حقيرة زائلة (منصب سياسى فخم ـ ثم فيلا وعربة وامرأة جميلة ورصيد ضخم يتزايد ٠٠٠) لقد كانوا تعبيرا مضللا عن طبيعة شعب طيب أصيل ٠٠ كل من شاهد هذا الغثاء والزّبد ترحّم واسترجع وقال لقد نُكبت مصر وصار شعبُها مثل عرب الجاهلية ومثل بنى اسرائيل الآبقين من هداية موسى ٠٠ يسجدون لأصنام من الحجارة ويعبدون عجولا من ذهب ٠

وجاءت النكسة كأنها كلمة السماء تنبه المؤمنين الغافلين إلى تراكم الضلال والخطأ ، جاءت مريرة مؤلمة تصدّع لها القلب وانفجر

فيها الوجدان شظايا : " اليهود " ! يحتلون التراب الغالـــــى الحبيب ! إن شذّاذ الآفاق لم يهزموا مصر العربية المؤمنة إلا عندما تباعدت عن إيمانها وتناسته فاختفى تحت طبقات من الكذب والدّجل .

ولقد صور المؤلف نفسه هذا كمرحلة مظلمة لانتفاخ كـاذب ، دارت فيها موجات الكذب الجماعى على مختلف المستويات ، فـــى حوار أورده بنصه " ... وفى هذه الناحية بالذات يئس من إقناعـــى بإخلاصه لسابق علمى بديمقراطيته الليبرالية ، وقد سألته مرة ضاحكـا : كيف انقلبت اشتراكيا بهذه السرعة الجنونية ؟ أجابنى ضاحكا ايضا : الناس على دين أوطانهم !

— أتعتقد أنهم يصدقونك ؟

— لم يعد أحد يصدق أحدا . ثم قال والضحك يعاوده : المهم هو ما تقول وما تفعل ! واجتاحته موجة من الضحك ثم قال : يتسـاءلون كثيرا عن سر ازدهار المسرح ، أتدرى ما هو سر ذلك ؟ السر أننا صرنا جميعا ممثلين .. ! "

لقد دفع وضع ما قبل النكسة قطاعات عريضة من المواطنين إلـــى اليأس والانطواء ، صاروا ضيوفا متفرجين فى وطنهم . وجاءت الصدمـــة مذهلة كيوم الساعة .. مرّة كالعلقم .. وفهم كل ذى عقل أنها إنـــذار السماء .. لم يجئ إلا هزيمة لما رضينا به من زيف وانحراف .. جاء بعد سنوات اختل فيها ميزان العدل .. جاء يشعل نار الغضب المقدّس فى نفوسنا ، لتطهّر حياتنا من أدرانها .

لقد حدث شعورًا لارتياح عند كل من فهم حكمة الصدمة (ومن السموم الناقعات دواء) ،فهى من أجل اليقظة والتصحيح . جاءت هزيمة بشعة فاستقام المنطق وكُسِح الزيف ، وكان من حسناتها أنها كانت بداية أصلحت خللا جسيما فى نظامنا السياسى وفى أوضاعنا الاجتماعية.

الشباب المصرى بعد النكسة :

بين شخصيات الرواية وُجدا ثنان يمثلان الشباب الذى يجتاحه القلق والتمرد بعد نكسة يونيو ، والمؤلف أشار إلى مرحلة تمرد سابقة للشباب عقب الحرب الثانية التى اجتاحت خلالها البلاد موجة من الاغتيالات السياسية . وقد أشيع يومها أن أستاذا جامعيا رفع خطابا سريا إلى الملك يقترح حل الأحزاب وإقامة دكتاتورية إصلاحية يكون من أهم أعمالها تربية دينية علمية للشباب .

هذه كانت مجرد إشارة ، أما الحديث المفصل فكان بين شابين يمثلان مرحلة مابعد النكسة. موضوع الحديث أولا عن الصفات العامة لهذا الجيل فيحدّد أهمها :

١ـ العناد : " لافائدة ، إنه جيل لايقتنع إلا بما فى رأسه"

٢ـ افتقاد صلة التفاهم مع الأجيال السابقة : " من العبث أن تناقش قوما ليس بينك وبينهم لغة مشتركة .. " .

٣ ـ الاهتمام الشديد بالسياسة : " وددت لوجاء أبنائى مثلى

لا يهتمون إلا بأنفسهم ومستقبلهم ولكنهم دوخوني بمناقشاتهم السياسية " .

.. ثم يبدأ في عرض آراء الجيل الجديد في مختلف الموضوعات والقضايا . والملاحظ أنها كلها أفكار ترفض وتهاجم دون تقديم عقيدة بديلة والتفسير الوحيد لذلك أنه " تزلزل كل شيء عقب ٥ يونية .. "

ونقدم إجمالا لآراء شاب من أولئك الضائعين ، وهو يقولها على أنها تمثل رأي الجيل ككل لا فقط الآراء الشخصية لفرد واحد .

الدين : الأغلبية لا تهتم به ، لأنه توجد به أشياء غير معقولة وتخالف ما ندرسه من العلم . تعليمه غير مثمر من ناحية العقيدة ، وفي البيت والداه مؤمنان ولا يؤديان العبادات . يوجد بين الطلبة عدد لا وزن له من الإخوان المسلمين . بعد النكسة وجد نوع من الميل للدين ، فقد قيل أن سبب النكسة إهمالنا لديننا .

السعادة : مفهومها فقط في وسائل المعيشة المادية (مسكن ، ملبس ..)

التعليم : شكلي وحسدأدني " لعله خير من أن نتصعلك في الشوارع ! ..

ولكي نحصل على وظيفة توفر لنا الحياة السعيدة .. " .

العلم والثقافة : " كلنا نطمح إلى دراسة العلم إلا من يقعده المجموع عن ذلك .. لأن الشهادات العلمية هي التي توفر الوظائف الممتازة .. " وقليلون فقط يقرأون .. ولكنهم لا يقرأون التراث لأن " لغته

معقدة ومحصوله ضحل وهو مقطوع الصلة بزماننا ! "

السخرية من جيل الآباء : كان أبى يقدس زعماء الوفد .. وأنا اعتبر ذلك مضحكا .

الحب والجنس : " الجنس مسيطر ، وقليلون يحبون أما الاكثرية فيمارسون المغامرات الجنسية " — " الفتيات لايتخلّين عن حلم الزواج ، وهذا هو عيبهن الاول " — " من مسرات حياتى .. علاقة جنسية بريئة .. أى ليست استدراجا لزواج " — " قد أتزوج يوما وإن يكن مرتبى مضحكا ومستقبلى عدما " — " لايشدّنى إلى الحياة إلاّغريزة حب البقاء " .

الانتهازية : " لاعيب فى الانتهازية .. أى وسيلة تنفع للوصول فى هذا العالم المكتظ فهى مشروعة ! "

الوطنية : " نحب الوطن وسنحرره بدمائنا ، الوطن الذى تسببتم فى هزيمته .. "

النظم السياسية : " لا أفضل أو أعتقد فى أى نظام فقد مللنا ذلك ويهمنا أن تتحقق لكل فرد حريته ونجاحه وسعادته .. "

ضد كل صور السلطة : " العالم كله عدم وهباء ، ولتحسين أحواله يجب القضاء على جميع المسئولين فيه .. "

.. انتهى العرض الشائق لهذه " الآراء " .. وواضح فيها الإغراب والإغراق فى التطرف ، وهو عموما ضياع بصرف النظر عن أى تفسير . هذه الموجة موجودة فى قبائل شباب الغرب من الهيبز

وغيرهم ، والآراء السابقة هى آراؤهم ٠٠ ولكن الموجة لم تصلنا بهذه الحدّة ولاقريبة منها ٠٠ والشباب الذين يتفقون مع صاحبنا فى آرائه السابقة نسبة لاتذكر ٠٠

يقول الروائى على لسان أحد شخصياته " من المؤسف أن الفن لم يقدم لنا بعد نموذجا من هذا الجيل ، كم أود أن أسبق الى ذلك ! " وهو يبذل هذه المحاولة فى " المرايا " ، ولكن التوفيق جانبه فقدم لنا فقط النموذج السيء ٠٠ السلبى ٠٠ الضائع ٠٠٠ وهذا النموذج ذو آراء شاذة ٠٠ وتصرفات لايقوم بها النمط الغالب من شبابنا المصرى ٠٠ نسبة من يقولون ويفعلون ذلك زادت كثيرا لاشك بعد النكسة ٠٠ ولكن رغم ذلك فالأغلبية العظمى لشبابنا مازالت فى صحة وسلامة ٠

الأخلاق وقيم الحياة الاجتماعية فى مصر

الجزء الباقى من تحليلنا يدور حول .. الأخلاق ، والحديث عن الأخلاق فى الأدب دقيق وحساس .. طويل ومرير. لقد غلب دائما وفى معظم الأحيان ذلك التيار الذى يعطى الانطباع بأن هناك تنافر حتى بينهما ، وأن الأدب يلذ دائما ويتجلى حينما يصور المروق من شرعة القواعد الأخلاقية " الجامدة " وقيود العرف " الرجعى " لقد شاع المثل بأن " الشر خبر " ومن حول هذا الخبر حيكت الروايات والقصص وانطلق الخيال جامحا يفرز الإنتاج فى جميع فروع الفن والأدب . فهل لا يمكن لليراع أن يبدع معانيه العاطرة واختلاجاته العذبة بتلك المعانى القدسية التى تروى غلة الصادى وترسى بزورق التائه الحائر إلاّ بالنفى الاختيارى خارج حدود دولة الاخلاق ؟!

وحديثنا هذا عن تحليل " سياسى " ، فما هو دور الأخلاق فيه ؟ رغم كل ماكتب وماقيل عن لا أخلاقية السياسة فالأخلاق هى عماد سياسة البشر وسياسة الكون كله . هى جوهر ومساك النظام المثالى .. اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا .. وكل أنواع النظم . قامت الحضارات حينما كانت الأخلاق نقية متطهرة وانهارت حينما دُنِّس النقاء وفُضَّت عذرية التطهر . ولم توجد أمة استطاعت أن تصنع حياة الرفاهية أوترد كيد الغازى إلا معتصمة بالخلق الجاد ومكارم الشيم . ولم ولن يتحقق نظام سياسى قوى وناجح طالما كان يُظِل بين جوانحه أصنافًا

من البشر المنحرفين الضالين اللاهين فى العبث ، الغارقين فى بحور الإباحية، أقولها فى إيجاز أمير الشعراء :

إنما الأمم الأخلاق مابقيت

فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

فالسياسة هى الحياة .. والحياة الظافرة أساسها الاول الخلق الكريم .. وبعد هذا البيان يمكننا تتبع الوضع الأخلاقى فى " المرايا " .

الروائى يقدم لمحات أخلاقية متكررة على مدى الرواية ، وصبغة حديثة هى حساسية الضمير والمسئولية الأخلاقية يتحدث من خلالها بنبرة الرومانسى الحزين الذى تنطق معارف وجهه بألم نبيل ودفين . لعل هذا المعنى ينضح من بين كلماته " وضقت بهموس الأخلاقية وتذكرت الكثيرين ممن يصفونها بازدراء بقولهم " بورجوازية " ، وقلت لنفسى إنه لمن حسن الحظ أنه لم يبق لنا طويل عمر فى هذه الحياة المتعبة الفانية " . والمؤلف وإن لم يقف بحسم وراء مبادئ الأخلاق وقيمها فى أحداث روايته ، ولم يستخدم إمكانياته الفنية فى توضيح الحكمة الأخلاقيّة للكون وللحياة الاجتماعية ، إلا أن الرواية تسجل له إعجابه الشديد بالنموذج الأخلاقى الذى احتل فى نفسه أسمى مكانة وتحسّ من ثناياها أنه يحيطه بالتقدير الدائم والتنويه المستمر بفضائله . هو يفسرّ ذلك الإعجاب عندما يقول " ولاغرابة فى أن تبهرنى الأخلاق البنّاءة كرجل عاصر فترة انهيار فى الأخلاق والقيم لانظير لها حتى خيل الىّ فى أحيان كثيرة أننى أعيش فى بيت كبير للدعارة لافى مجتمع " .

وفى نظرته الأخلاقية الى الحياة قدم الروائى على لسان شخصياته كما أطلق بنفسه أحكاما تقويمية قدمت كلا وجهتى النظر : المتشائمة والمتفائلة . ونبدأ بنظرة التشاؤم لأنه أفاض فيها وكان لها الظهور والغلبة . تناثرت مجموعة أحكام قاطعة قوامها التعميم والإطلاق ، نورد منها نماذج ثلاثة : " الزيف فى الحياة منتشر كالماء والهواء وهو السر الذى يجعل من باطن الإنسان حقيقة نادرة قد تخفى عن بصيرته فى الوقت الذى تتجلى فيه لأعين الجميع .. " — " بتّ أعتقد أن الناس أوغاد لاخلاق لهم ، وأنه من الخير لهم أن يعترفوا بذلك ، وأن يقيموا حياتهم المشتركة على دعامة من ذلك الاعتراف ، وعلى ذلك تصبح المشكلة الأخلاقية الجديدة هى : كيف نكفل الصالح العام والسعادة البشرية فى مجتمع من الأوغاد والسفلة ! " والأخيرة تأكيد على لسان أحدهم " لايوجد انسان شريف " ثم يفلّ من حدة حكمه قليلا بأن يكسر عموميته فيربط فقط بين النجاح واللاأخلاقيّة " لو أنصفوا لولّوا المنسيين مقاليد الحكم فهم فى الواقع أشرف الموظفين ! " ويعيد تأكيد ارتباط الأخلاق بالفشل "لم تتمسك بالأخلاق مادامت تقود إلى الفشل .. لاتغال فى المثالية والا مت تقززا ! " — " إن الأسباب التى تدعو للاستغناء عن موظف لاستقامته أكثر من الأسباب التى تدعو للاستغناء عنه لانحرافه ! "

ثم لاتفوتنا ملاحظة طريفة بهذا الخصوص ، فحينما تواجه شلة الروائى فى طفولتهم بأحد أفرادها يطالبهم باحترام بعضهم فى الكلام ، ترفض الشلة بالإجماع طلبه تماما وتعامله هو فقط المعاملة التى تريحه

وتؤكد حتمية البذاءة فى الحديث بين الأصدقاء الحميمين فلا مناص من تبادل النعوت " ابن القديمة " ، " ابن المجنونة " .. ومابعدها مما لاينشر .. حتى هذه الجزئية الصغيرة تؤكد ظاهرة اجتماعية لاننكرها وهى أن البذاءة توابل الألفة عند شلل النواصى عندنا .. وشلة مؤلفنا من أعلاها ثقافة وأفضلها تخريجا للناجحين فى الحياة .

ورغم جرعات التشاؤم الكثيرة والمركزة فهو يقدم أيضا وجهة النظر الأخرى المتفائلة " قولوا فى الدنيا ماشئتم ، لاجديد فى التشاؤم ، ولكن الحياة فى صالح الإنسان وإلا مازاد عدده باطّراد ، ومازادت سيطرته على دنياه " . ويتحدث أيضا عن النقاء فيصفه ويحدد وسيلته " ويوما بعد يوم فإن إيمانى يرسخ بأن نقاء الانسان يجئ من الخارج بقدر مايجئ من الداخل ، وأن علينا أن نوفر الضوء والهواء النقى إذا أردنا أزهارا يانعة " .

وبعد هذا الطرح النظرى لقضية الأخلاق فى " المرايا " ، كيف أظهر صورتها العملية من خلال الشخصيات والأحداث ؟ نتتبع ذلك فى النقط التالية :

١ـ أول معلومات جنسية لطفل : الراوى فى العاشرة وقريب له يكبره بخمس سنوات يصحبه الى بيت بغاء ليجعل لنزوته طابع البراءة أمام الأهل ، ولا (تعتق) إحدى البغايا حتى الطفل فتدخله معها وتجرّد نفسها من الثياب وتطلب منه خلع بدلته .. فيفر مرعوبا مما رآه من صدمات .

وفى مناسبة أخرى يتحدث الراوى فيذكر أن زميله بالثانوى سألهم عن أوفق الأماكن لممارسة الحب وأجاب السائل نفسه بأنها (القرافة) وأن فى فرصة المواسم يبيت الناس فى المقابر والنساء يكنّ أضعاف الرجال " وفى ظلام الليل تمنح فرص لاتخطر على بال .. " ونفس الزميل يحكى أيضا كيف انقضّ على خادمة فى مكان خال بمنزلهم والنائحات حول جثة عمته قبل تكفينها . وصدفة غريبة أن يكتسب الراوى أول معلوماته الجنسية من مراهق (رمة) لايستثار جنسيا إلاّ فى أجواء الموت !

وليس فى هذه الخبرة الجنسية البكر مايلفت ، فطرق اكتسابها تكاد تتعدد بعدد أفراد جنس البشر ، خاصة فى ذلك المجتمع الذى لم يصل مستواه الثقافى إلى تحديد طريقة منظمة لنقل مفاهيم الجنس إلى الأطفال والمراهقين بطرق متدرجة ومعقولة عن طريق الأسرة أو المدرسة أو مكان العبادة ، وعندما لايشيع أسلوب منظم وواضح فان المسارب تتعدد فيضيق بها الحصر والتحديد .

٢ـ اتهامات اللواط : الروائى يقدمها فى روايته كإشاعة وكاتهام فقط ، ولم يقدّم أحدا مع خبر مؤكد عنه بشذوذه الجنسى . واختار أن يصم بهذه التهمة (المقرفة) أولئك الانتهازيين المتسلقين : أحدهم رزق جمالا أنثويا فتح له أبواب رؤسائه " من أهل ذلك " فصعد من القاع درجات السلم الوظيفى كالصاروخ والإشاعات تدوى . وثانيهم كان نده فى الصعود والانتهازية وفسروا عزوبته بشذوذ جنسى يخفيه

تحت قشرة من الصرامة • أما الثالث فلم يسلم شخص من اتهاماتـه المتناثرة على الجميع بأقذر التهم وعلى رأسها اللواط ، فردوا لـه التحية وقالوا إن أمه كانت غسالة ثم رموه بالشذوذ الجنسى •

٣ ـ البغاء الرسمى : كان القانون ينظم الدعارة قبل إلغـاء البغاء ، وفى ظل هذا الوضع تقدم " المرايا " شخصية البلطجى الذى يفرض سطوته على البغايا لحمايتهن وفرض الإتاوات عليهن • كما تقدم أيضا المعلّمة التى سماها الراوى (صبرية الحشمة) ولعله تأثـر بالتسمية الفرنسية للبغايا " المحترمات " ويصور ازدهار أحوالها فى ظروف الحرب ووجود جنود الحلفاء يعربدون فى شوارعنا وملاهينـا •

٤ـ العشيقة " الداجنة " أو الخصوصية : البغى محترفة للتكسب مع اختلاف درجات ومستويات هذا التكسب " يطأها " أى طارق راغب مادام يدفع الثمن • ولكن " المرايا " تقدم صورة أخرى لدوامة مـن العشيقات • والعشيقة ليست بغى فهى تختار رفيقها (بمزاجهـا) ، والقاعدة أنها لاترافق إلاّ واحدا فى مرحلة معينة • ولقد أسرف الروائى فى علاقات العشق غير الشرعية حتى لتظنه يتحدث عن أرستقراطيـة فرنسا يوم كان للعشيقات وضع اجتماعى يعترف به الجميع • مجموعـة كبيرة من رجال " المرايا " يتخذون العشيقات خاصة فى كهولتهـم ويتبادلون الزوجات باعتراف ضمنى بسماحهم بهذا التبادل أولنستخدم اللفظة العامية (الغطرشة) والتلذذ بنقل أخبار ما يحدث بينهـم مـن علاقات جنسية مبتذلة ماجنة قلبت حليلاتهم الى خليلات لمعارفهـم ومخالطيهم •

الصورة التى يقدمها الراوى لأخلاق المرأة المصرية فى مرحلة الرواية سيئة جدا فى أى حكم خلقى بسيط ، هى صورة لمجتمع يحكمه الانحلال والتفسخ ، هى صورة غير صادقة وبعيدة تماما عن حقيقة المجتمع الذى نعيشه ،ففتيات وسيدات " المرايا " يتصرفن بسلوك خلقى منحط وغير مشرف . ولكى نثبت أن العلاقات الجنسية فى الرواية بعيدة تماما عن واقعنا .. نحدد ما قاله بالأرقام . تحدث فى روايته عن ١٤ أنثى مصرية ، نستبعد منهن ٣ لأنه لم يذكر بخصوصهن إلا خيال طفولى رقيق فهن أول من حرك خياله إلى حب البنات والإحساس بتلك الجاذبية العذبة ، ولم يعرف عنهن إلاّ نظرات محدودة اختفوا بعدها فى غمار الحياة . يبقى لدينا ١١ ، وتفصيل سلوكهن الجنسى كالتالى :

١ اتصال " روحى " فقط ـ لقاءات وحوار فى الحب ـ لأن عدد زوجها كامل ولكنه لا يشاركها الخيال .

١ مقابلات مع رجال تلتقطهن من أماكن عامة وهى مقتصرة على العناق والقبلات ليس أكثر .

٩ كلهن مارسن علاقات جنسية غير شرعية .

فهل نساء الرواية هن المصريات المعاصرات اللاتى نعرفهن ونعايشهن كأمهات وزوجات وأخوات أم حدث " سهو " من الكاتب فتحدث عن نساء سدوم وعمورة ؟ إن نساء " المرايا " أقلهن يستجبن للجنس مع الهمسة الأولى للدعوة والغزل ، وأكثرهن يسعين شبقات متلهّفات يغازلن الرجال ويعدون لهم الشقة والفراش وكل الظروف الملائمة

لجنس شهوانى يؤكد الراوى فى كل مناسبة أنه جنس بلا حب . هل نساء " المرايا " هن " عينة ممثلة " أو حتى متناسبة مع واقع البلد الذى شاع فيه أن شرف البنت زى عود الكبريت ، ولا تتردد فيه كلمة الشرف على إطلاقها إلا انصرفت إلى عفة البنت وعذريتها ؟

هل هؤلاء هن الجيل التالى لسنية " عودة الروح " التى كان خيال ثوبها الأخضر يلهب خيال جيرانها من رجال الحى ويشعل فيهم عواطف الحب وخيالات الرومانسية ؟ هل حدثت هذه النقلة الشنيعة من جيل الى جيل فوجدنا القاهرة الشرقية المحافظة حصن التقاليد قد انسخطت إلى مجتمع خرب كل إناثه يتهافتن على السقوط ؟ فحتى الحرب كانت آثارها محصورة ولم يحس بها إلا فئات ومجتمعات محدودة إزاء قطاعات مجتمعنا العريضة ، فظلت بنات وسيدات مصر لا يوصفن حتى كتابات الخمسينات إلا بأوصاف إنشائية تواترت بأنهن جواهر مكنونة ، وأنهن ربات صون وعفاف وأنهن حوريات حياء ودلال .. فهل كل هذه الصفات وغيرها كانت تطلق على شبيهات لنماذج " المرايا " ؟!

والروائى لا يكتفى بتصوير خاطئ بعيد عن الواقع لأخلاق مجتمعنا ، بل ينثر بين الأحداث آراء دفاع وتبرير . فالبنت التى أحبها والتى مارست عليه من أول نظرة " سيطرة جنسية " جذبته إلى علاقة سريعة معها وفى الخطوة الأخيرة قبل الارتباط الشرعى تعترف له بأنها .. ليست عذراء . إنه يتراجع مغلوبا تحت تأثير

تكوينه المحافظ الذى لايوافق عليه فكريا فتعليقه على هذه المفاجأة نشاز وغريب " وكانت تلك الهفوة مما لايغتفر على أيامنا . كنا نحارب طبقات كثيفة من الماضى العتيق كلما تلاشت طبقة برزت تحتها طبقة راسخة تتطلب المعاناة والعناء لقهرها " هل هناك عبث أكثر من هذه الكلمات؟هل العذرية أصبحت فى مجتمعنا اليوم رجعية من مخلفات الماضى ؟ هل يوجد بيننا الرجال الذين يتزوجون بسماحة وقبول لبنات يعترفن لهن بفقد بكارتهن ؟ وهل هو هدف" تقدمى " لنا الآن أن نسعى للوصول إلى هذا النوع من الفكر والوضع الاجتماعى ؟!

وعندما يخطىء الراوى ويتساءل هل يعلم زوج بعلاقة زوجته بصديق الأسرة ، يستهجن صديق مشترك وينصحه " تعوّد على هذه العلاقات حتى تبرأ من عبوديتك البورجوازية " . وهذه الزوجة العاشقة المعشوقة فور علمها بأن الراوى يعانى من عشقها ، تطوق عنقه وتحنّ عليه بالوصال بشرط أن يكون ليلة واحدة ! ثم تعاجله بآخر التعريفات العصرية للفضيلة " المرأة الفاضلة يكفيها زوج واحد وعشيق واحد ! "

وإذا كانت فتاته الأولى (تعترف) بالزلّة وأنها خطأ لاذنب لها فيه ، فهناك أخرى تتباهى وتتبجّح وتجعل الانحراف عقيدة ، فهى بدأت دراستها الثانوية " مزودة بإرشادات أمها الطيبة المرددة لصوت الجيل السابق ، ولكنها سلمت نفسها لأول شاب بادلها الحب وهى تظنه سيفى بوعوده ، ثم كررت ذلك مرارا ، بدافع

الثورة حينا وبدافع اللهو حينا آخر وبدافع الحب في بعض الأحوال
وكنت أشعر بالخوف أحيانا ولكنى لم أشعر بالندم قط .. أصبحت
سيدة نفسى ، وتحديت العالم كله ، بكل قيمه التى لم أعد أومن
بها .. " ثم تعلن فى ختام حديثها " نحن أمل المستقبل ! " .. كذا

.. ياسلام .. هكذا انقلب الانحراف فصار رسالة وعقيدة . هل رأيتم
هذه النماذج من نساء " المرايا " ؟ هل هكذا سيظهر مجتمع مصر
طالما بقى هذا .. " الأدب " ؟ إن هذه ليست مجتمعات (الناس
الطيّبين) فى مصر وكان على الروائى أن يبرز بقدر ما يستطيع أنه
استمدّ هذه النماذج من كرخاناتها وأوساطها الموبوءة .

لسنا من السذاجة لنطلب روايات وكتابات أدبية أبطالها كلهم
من الملائكة الأطهار ، ولكنها سذاجة متناهية أيضا أن نجعلهم كلهم
شياطين منحرفين ليس فيهم شخص واحد من الأسوياء .

إن تيار الانحراف ـ خاصة العلاقات الجنسية غير الشرعية ـ
عندما تجد أديب قمة فى مكانة نجيب محفوظ ليقدمه كطبق شهى له كل
هذه الجاذبية فى أحد أعماله البارزة ، من ناحية سيظل وثيقة للتاريخ
فالإنتاج الأدبى شاهد على عصره ـ يصم المرحلة التى تدور فيها
أحداث الرواية ، ومن ناحية أخرى هو دعوة ذات بريق الى ناقصى
العقل والدين ليتأثروا بهذه النماذج الساقطة بدعوى أن " كل الناس
كده " .

وحول الظاهرة العامة لشيوع التيار اللاخلقي في الانتاج الأدبي بكافة صوره توجد عدة تفسيرات :

١ — إن الشيء الغريب الشاذ هو الذي يُروى ، فحياة الإنسان العادي ليس فيها ما يلذ ويستحق المتابعة ، أما ما يحدث استثناء من شذوذ وانحراف عن الخط العريض المعهود في حياة البشر فهو يثير فضول الناس ويستدعي اهتمامهم بالتسجيل في صورة أدبية منمقة بديعة يطلبها القراء في لهفة وشوق . إن قاعدة عمارة الكون هي الأخلاق ، والخروج عن هذه القاعدة هو الذي يستحق التسجيل كتابة وقراءة في مختلف الصور الفنية والأدبية .

٢ — إن الكاتب يعكس عالمه الذي يعيشه : إننا نعيش في عوالم متعددة لا في عالم واحد ، اللص في عصابة يعتقد أن كل الدنيا عصابات لصوص ، الفاسق في ماخور يعتقد أن العالم قسمان : بغايا وفاسقين ، العابد المتبتل يرى الدنيا نقية طيبة تحكمها نوايا الخير والمحبة .. الغني يحسب الدنيا كفاية ورخاء ، والفقير يراها حاجة وإدقاعا وضيقا مستمرا .. وهكذا الكتّاب كل منهم ينبع من مورد مختلف وله نظرة خاصة إلى الحياة يحمل فيها ظروف بيئته وتكوين شخصيته .

٣ — إن الكاتب أسير عقد معينة تحكمه وتسيره . وهنا يسود التحليل النفسي للأدب الذي يمسك بتلابيب الأديب : عوامل الوراثة والتربية في الطفولة وخواص البيئة .. ثم تمسك كتاباته كوثيقة نفسية أدبية تشير إلى وتؤكد بعض العقد التي تسيطر عليه . مثلا حينما يصاب أحد الكتاب

برز، وخيم فى شرف أنثى تمت اليه بصلة قريبة يظل مجروحا موصوما أينما تحرك فى شرقنا العتيد الذى يجعل شرف الشخص مرهون بعفة من يمت إليه بالقربى من الإناث ، إنك تراه ينتقم من العالم ويأخذ بثأره من المجتمع بأن يصم جميع إناثه بالفجور والتهتك والانحلال . ومثل آخر عندما يكون الكاتب ذا منشأ ريفى بسيط وتكون هذه هى نقطة الارتكاز فى شخصيته قد تراها انعكست فى حياته بأحد نقيضين : إما أن يصبو إلى حياة المدينة فيمجدها ويعلى من شأنها ، أو بالعكس يتغنّى بأصالة الريف وخيره وهدوئه رافضا ضجيج المدينة التى أودت بكل الخصال الطيبة .. والأمثلة كثيرة .. وهذا النوع من التحليل النفسى للأدب متعدد الاتجاهات ملتف المسالك بقدر تعقد نفس الإنسان وغموض تركيبها .

٤ ـ الأدب نوع من التنفيس الممتع مثل أحلام اليقظة وأحلام المنام ، فكل مالا يستطيع الإنسان اقترافه من اللذة الحرام ، أو إتيانه من العمل الجليل الذى لا يصل إليه إلا عظماء البشر ذوى الإرادة والجلد .. وكم يشتهى الإنسان الكثير خارج حدود قدراته ، إنه عندئذ يصنع مايشاء فى خياله ، يبنى عالما على هواه ، يعربد فيه كما يشتهى ، يرسم الشخصيات ويسير الأحداث .. فلا من حسيب ولا رقيب . وهذا هو شأن الروايات والقصص ، إنها عالم بلا ضوابط ولا مساءلة عن المنطق والأخلاق وحساب آثاره على أفكار الناس وسلوكهم .

قدمت بعض تفسيرات للظاهرة العامة ولا أحدد إحداها أو

أكثر من واحدة لربطها بموضوع كتابتنا عن مرايا نجيب محفوظ. وحسبى هنا أن أعترض على ما فيها من نماذج أخلاقية شائنة ، وليس فى الإمكان ببساطة الجزم بتفسير حول المغالاة الشديدة للكاتب التى غيرت الحقيقة وشوهتها ، فلعل هذا يجد حقه فى بحث مستقل وانى نحاول ان نصل فيه إلى الجذور .

إن طبيعة الفن والأدب وجوهره هى الإبداع والمتعة التى تنعش جوانح الإنسان بتيارات متجددة من بهجة الحياة ، فتهبه جنة وارفة من الأفكار والكلمات فى دنيا النقص والعناء وتصله بقبس من الخلود . ومع المحافظة على هذه الطبيعة التى لا يكون بغيرها ، فليحدد هدفه الأسمى فى أن يجعل الانسان البسيط مؤمنا فى كل ذرة من كيانه بمعقولية الحياة وعدالة الكون ، والأساس الراسخ لذلك هو " الفضيلة " ، فلتكن نصب أعيننا فى كل عمل جمالى ولنجعلها رسالتنا دون لىّ أو تعسف أو اصطناع .

قريبًا للمؤلف

العملاق والعميد

مباراة الخلود على شاشة التليفزيون

يصدر أول فبراير ١٩٨٣

- - - - - - - - - - -

كما صدرت الطبعة الثانية من

إمارة الشعر الجديد

في ذكرى الشاعر صلاح عبد ال

تطلب الكتب من الباعة

ومن جمعية خريجي كلية الإقتصاد ٧ ش ههران قرب م